لعنة روح

رواية

مارا أحمد

كتاب طيوف سلسلة من إصدارات يسطرون

رئيس مجلس الإدارة
عماد سالم
الإشراف الأدبي
السيد حسن
المدير التنفيذي
هناء أمين
مدير الإنتاج
مصطفى عماد

الطبعة الأولى
الكتاب : لعنة روح
المؤلف : مارا أحمد (مرفت أحمد)
تصنيف الكتاب : رواية
التصميم والإخراج : مؤسسة طيوف
المقاس ١٤× ٢٠
رقم الإيداع : ٧٤٦٩٤/ ٢٠٢٠
الترقيم الدولى :978-977-6836-31-0

العنوان : ٨٩٢ شارع الملك فيصل - محطة ضياء
Email : ketabtoyof@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : كتاب طيوف
جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

إلى .. كل فنان "أديب"، الحي أو المفارق

إلى مَن منحنا حب الكلمة،

وأهدانا صنعة التأمل

و إلى أسرتي ..

مارا أحمد

روح ضالة

"كلٌّ منا يسير في طريق، نرسم أحلامنا باليد وبالاشتهاء، ثم تعرقلنا الصدفة لتتضافر طرقنا ونلتقي، يبدو لمنطقنا البشري أنها محض مصادفة، وهي خطة صاغها القدرُ مسبقاً في كتاب محفوظ .. وما نحن إلا مؤدون ما كتب.

متى وكيف ولماذا التقينا ؟

الكيف والمتى ندركه، لكن أسباب الصدفة لا ندركها إلا بعد استكمال للرحلة".

نجوى"

كانت ضمة القدر التي كللت كفي إلى كفه .. زاوجت بين قلبينا ليتنازع بيننا قس وشيخ .

"ناهد"

يحدثونني عن الله وهم يحملقون في السماء، وأنا - بعد - لم أخرج من قبري .. هل يحق لهم سؤالي عن لون السماء؟!

لي جسد وروح .. أجهضوا حق جسدي .. اختنقت روحي، فخرجت إلى العالم مسخاً، فنبذوه، ثم سألوني : أين الرحمة؟!

"نور"

نحن جيل يسير على قدمين، يخطو في حياته بقدم إلى الغد وقدم ما زالت مغروسة في الماضي .

-١ -

جريمة بالمعادي

(تبدأ أحداث الرواية يوم خميس .. لأتفاجأ بأحداث لا شك أنها قلبت حياتي رأساً على عقب.

في أحد الأحياء الجديدة الراقية، التي أقيمت محاولة لبعث الجمال، الذي شُيعت جنازته – بالمعادي.

نحن في أطرافها حيث الهدوء، وكأن القاهرة غادرها البشر أو كأننا في مشهد سينمائي للقاهرة في الأربعينيات، حيث تندر السيارات والمارة؛ ليهتك ذلك السلام صرخات (سارينة) سيارة الشرطة التي أزعجت هدوء المكان، وأرقت مضجع الصمت، فأثارت غيظ سكانه، منهم من كان رد فعله التجاهل، وكأنه بتجاهله يصفع تلك الزيارة غير المرحب بها، ومنهم من اهتم بتلك النداءات التي ترسل لهم رسالة مفادها "أن سلام سكان هذا الشارع في خطر"، فكان رد فعل طبيعي منهم، تلقي تلك النداءات بالامتنان والتقدير لتلك الحملة الأمنية مفتوحة العينين الساهرة على أمنهم.

فجأة دبت بتلك المنطقة الحياة والضوضاء والقلق، وفي إحدى العمارات، التي يتناوب على حراستها رجال أمن تابعين لشركة أمن كبيرة، "كير سيرڤيس".. بابها موصد بالحديد والكوالين الإلكترونية كل هذا لم يمنع حدوث تلك الجريمة البشعة .. سيدة في العقد الثالث مذبوحة بشقتها بالدور الرابع، ولم يشعر بها أحد من السكان إلا بعد أن فاحت رائحة كريهة، مما دفع السكان ورجال الأمن إلى إبلاغ الشرطة التي حوطت العمارة والمنطقة لحل لغز مقتل تلك السيدة.

***

نزوح اضطراري

حين أعود الى الوراء وأجتر الماضي، لولا أنه ماضيّ أنا، وأنا التي عشته، ما صدقته واتهمت صاحب القصة أنه يروي فيلماً هندياً بلا حبكة..

ولكنها حياتنا حين تغادرنا ماضية إلى التاريخ، وقد تركت مكانها لتتحول إلى رواية أو حكاية قد لا تصدق..

أذكر الآن طفولتي التي مرت بسلام إلا من بعض الأوجاع التي أعتبرها الآن مجرد نزلة برد إذا قورنت بحجم الصعوبات التي واجهتُها فيما بعد، ربما لأنها مرت وانتهت، أعتبرها الآن مجرد منغصات، لكن حينها كانت كوارث حملتها في عمقي كما جنين حُبلى أنا به، موبوء بجينات تعادي جيناتي، يقتات على جسدي وروحي.

كنت إحدى أختين، أنا الصغرى وآخر العنقود، لأم تعمل في الضرائب، وأب يعمل في أحد البنوك .. عشنا حياة هادئة إلى حين.

أختي الكبرى إيمان وأنا نجوى، تخرجت إيمان في كلية الألسن قسم ألماني، وكانت تكبرني بأربع سنوات

وبضعة أشهر .. حين اجتازت الليسانس كنت أنا على عتبة الثانوية العامة، والتي كانت بالنسبة لطلابها كما سباق حياة أو موت، لم أكن أعلم أنها كانت أولى درجات كوارث القدر، لقد اجتزتها بسهولة، وكان غيظي عظيماً حين اكتشفت أنها عفريت نحن خلقناه، وأنها أوهن من أن نعيرها جل هذا الاهتمام، والذي أضاع عاماً من عمري بل أربعة عشر شهراً، فنحن نبدأ عامنا الدراسي قبل الدراسة بشهرين، منقطعة عن الحياة مكرسة كل لحظة لأجل مذاكرة مواد أصابها العقم والجدب .. اجتزت ذلك السباق بمجموع أهلني للالتحاق بنفس الكلية، "الألسن" ولكن قسم اللغة الإنجليزية .. هذا العام كان فارقاً في حياتي، بل حياة أسرتي جميعها.

عاد أبي يسنده اثنان من أصدقائه بالبنك، هكذا أدار الزمن ظهره ليعود بوجه عبوس وقد استبدل ضحكاتنا والسلام الذي عشناه بهدوء خلقه الحزن، وكما يقولون المصائب لا تأتي فرادى، أصيب أبي بعدة جلطات، راح في غيبوبة لأيام طالت، بعدها انتقل إلى رحابة الرحمة والسكينة، إلى ملكوت الكرم.

وعادت أمي بعد أن أرقدنا جسده بمقره الأخير تحت الثرى، وقد تغيرت ملامحها إلى إنسان صامت، لا يأتنس إلا مع ألبوم صورها معه، فلقد تزوجا عن حب وكانا صديقين بينهما أرقى أنواع الرفقة والعشرة .. كانت أمي بعد رحيله كما الروبوت، تتحرك ووجهها بلا أي تعبيرات وكأنه فقَد مرونته أو كأن عضلاته قد شُلت بعد أن حقنتها بالبلاستيك، ولكنها حقن الرفض، رفض موت أبي وما خلفه من أعباء كانت أثقل من قدرتها على التحمل ومواجهة الكوارث التي تلت وفاته، والتي جعلت منها امرأة ذات تعبير واحد على وجهها، وهو الاندهاش والذهول دوماً، فلقد حرّمت على نفسها وعلينا الضحك وكأنها أُجبرت على مواصلة البقاء، صمدت لتكمل رسالتها معنا، علمت بعدها أن أبي ترك ديناً كبيراً دفع أمي لبيع مجوهراتها وشئ من ممتلكاتها العقارية لسداد هذا الدين، الذي تمثل في شكل قرض، كان رأس مال لشركة أقامها وانهارت سريعاً، فلم يكن لديه خبرة في مجال تجارة السيارات، مما أسقط شركته وسقط معها ..

أذكر حين كنا صغاراً نسكن بشارع ٧٧ - بجوار نادي المعادي، الذي كنا من أعضائه - في بيت صغير لكنه كان أنيقاً، كان من حظي أني عشت المعادي الراقية،

التي تتنسم بها رائحة الريف بهوائه النقي ورقي الحضر، ذكرياتي هنا منها ما ورثناه سمعاً من حكايات الأهل والأجداد ومنها ما عشناه عيناً وجسداً وروحاً.

ما سمعناه عنها كان مبهراً ويدعو إلى الفخر، ما يحضرني الآن هو صوت أبي، فأنا في حاجة إلى استحضار صوته لأشعر باستمرارية حضوره الذي يشعرني بالأمان.

كان أبي يحكي لنا رحلته من وإلى العمل، كانت وسيلة الانتقال في ضواحي المعادي هي الدراجة، وهي الوسيلة التي يصل بها إلى القطار، ويركنها بجراج خاص بالدراجات بجوارالمحطة بشارع ٩، طوال الطريق تحوطنا الأشجار التي كانت تتباهى بأناقتها كما عارضات الأزياء .. في الطريق تشاهد على البعد شاشة سينما فونتانا الصيفيه التي تقع على مقربة من أرض الجولف بعيداً عنا بعدة محطات، ورغم ذلك يمكن لك مشاهدة الفيلم وأنت في الطريق إلى شارع الترعة "أحمد زكي" ماراً بميدان السوارس، وكأن الممثلين يناطحون الأشجار لكي ترتفع رؤوسهم حتى تراهم، وأحياناً تميل الأشجار فيطل الممثل لنراه بوضوح، وأحياناً تباغتك بميلها لتخطف منه البطولة ..

الآن المعادي خلعت عنها أناقتها وغادرتها الخضرة لتحل محلها الميكروباصات والتكاتك وعوادم السيارات، وتحتل العشوائيات المباني، وعادات الناس وتقاليدهم التي اقتنصت أغلب بنودها من العباءة الخليجية .. لا أعارض أن نتحلى بقيم العباءة، ولكنها كانت مجرد ملبس ستحدث لا يشبهنا، بلا روح وبلا عراقة هنا بمصر ..

امتدت المقاهي لتفترش الأرصفة وارتفعت المباني بشكل شيطاني، حتى أن الكثير منها سرقت مساحة الشوارع لتتحول إلى أزقة بلا نظام، أما بيتنا فلقد كان صغيراً أنيقاً، بيت بدورين وحديقة صغيرة تحيط بواجهته، كانت أمي تزرع بها الياسمين والورد البلدي والبرتقال، وفي أحد أركان الحديقة هناك تكعيبة عنب وبورجولة تحتها أرجوحة صغيرة ومائدة كنا نجتمع بها في الصيف .. الحديقة التي هي مدخل إلى بيتنا، كانت بوابتها من الخشب الأخضر، فلا بوابات حديديه ولا أقفال إلكترونية، فالأمان كان باذخاً هنا. مدخل البيت من الخشب الجرار، فلم يكن للألوميتال وجود بعد.

الدور الأول كان عبارة عن صالون كبير لاستقبال الضيوف، وغرفتين مهيئتين كمكتب لأبي، وحجرة

أخرى مُعدة للنوم لمن يزورنا من أقارب أبي أو أمي، وحمام واسع ومطبخ، وفي الوسط سلم حلزوني من الخشب يصعد إلى الدور الثاني، الذي كان عبارة عن حجرتين للنوم، إحداهما لأبي وأمي والأخرى لي وأختي، وبينهما صالة، كانت حجرة المعيشة بها تلفاز، ومكتبة كبيرة بها الكثير من الكتب الأدبية والمجلات والجرائد القديمة؛ فلقد اعتاد أبي أن يحتفظ بهم وكأنه يضمن بذلك أن يحافظ على عمره الذي غادره بتخزينه للأحداث التي عايشها هنا بالمكتبة، وهناك بأحد الأركان بوفيه صغير فوقه راديو قديم داخل دولاب خشبي قيم؛ فلقد كان الراديو قطعة أثاث هامة في البيوت المصرية، وهناك ثلاجة صغيرة بين الحجرتين بها المياه والشيكولا وبعض المشروبات .. وكانت أمي تحتفظ بداخلها بالسندوتشات والزبادي لمن يحتاج منا للطعام في المساء ..

أما (الروف) أو السطح فقد كانت به بعض أحواض الزرع الكبيرة، التي كانت أمي تزرع بها الطماطم والنعناع والملوخية وهناك عشش لتربية الطيور، لقد كانت أمي سيدة متعددة المواهب واقتصادية رائعة.

قام أبي بتحويل الدور الأرضي إلى مكتب لإدارة مشروعه، الذي اقترض له مبلغاً كبيراً من أحد البنوك، والذي كان سبباً في الانقلاب الذي تعرض له بيتنا، وكأن ملاك الموت جاء بصحبة هذا القرض أو وكأنه حين نقب عن كنز الثراء إذا بكفيه تُخرج معه عفاريت تطايرت هنا وهناك لتأخذه إلى عالمها تحت الأرض ويتركنا فرادى تتخطفنا الطير.

لم تشتكِ أمي ولم تلمه ولم تعتب عليه، إنه الحب المرصع بالاحترام.

تمر أيامنا في رحلة ما بين الصعود والهبوط، وبعد رحلة شقاء لسداد ديون أبي ورحيله لتمنحنا الحياة فرصة قصيرة من السلام، اضطرت أمي قبلها لبيع البيت رغبة منها في الحفاظ على مستوى مادي مناسب لنا، حتى لا نشعر بفقر أو حاجة أو ربما هروباً من صورة أبي التي كانت تطاردها في كل ركن من أركان هذا البيت، بل المنطقة .. وكانت لحظة مغادرتنا له كلحظة نزوح لاجئ بعد ضياع وطنه في حرب، وتهدم ذكرياته تحت النيران، رأيت أمي تبكي، فلقد مات جزء آخر منها وكأن الفراق أمسى ظلاً لها بل لنا ..

بيعَ البيت وانتقلنا إلى صقر قريش المعادي بحثاً عن الأجواء الراقية، والهدوء الذي اعتدنا عليه قبل زحف العشوائيات إلينا، فكان في الانتقال فسحة من الراحة وباباً جديداً من الأمل .. على الرغم من أن المقارنة بين بيتنا، المستقل البسيط الذي نشأت به، وبين شقة في عمارة يجاورك فيها ناس من مختلف الثقافات والخلفيات، مقارنة تجعلك تتجهم وتشعر أنه رغم غلق الأبواب عليك إلا أن حريتك لا تزال منقوصة ومخدوشة، لكن لا شك أن في التنقل والبحث عن الحياة في أرض أخرى شيئاً أنعم به الله على البشر، فبالفعل "إن ضاقت عليك الحياة عليك بالانتقال، ففي السفر والهجرة أبواب كثيرة تفتح أمامك حيوات".

تزوجت أختي من زميل لها في نفس الجامعة، ولكنه كان خريجاً في كلية العلوم وعُين لتفوقه معيداً .. تم حفل الزفاف في شكل عائلي لم يحضره إلا أفراد العائلتين؛ لظروف حزن ماما الذي استمر أعواماً، بعدها سافرت أختي مع زوجها إلى النمسا ليستفرد الحزن بي وأمي، فأهرب من وحدتي بالمذاكرة والانخراط بأنشطة الجامعة حتى أنشغل أغلب الوقت بعيداً عن الذكريات الموجعة ببيتي .. كانت أمي بين حين وآخر تختفي لساعات وأنا أنتظر في حالة من القلق

عليها حتى تعود وأسألها أين كانت؟ لكنها تكتفي بالصمت، إلى أن صادفتها يوماً وأنا عائدة من الجامعة تقف لتراقب بيتنا القديم وكأنها كانت تبحث عن أبي وعنا هناك .. نظرت إليها وهبطت من الميكروباص لأصحبها إلى البيت.

عدنا لتدخل غرفتها وأسمع صوتها وهي تنتحب، فتحت الباب ودخلت لأحتضنها وأسألها : ماذا بك يا أمي؟

- أباك .. أفتقده يا نجوى، أفتقد بيتنا، ذكرياتي هناك، شبابي وطفولتي، هذا البيت كان بيت جدك وجدتك ولأني وحيدة أبوي زوجني أبي به، الدور الأول كان لهما، والثاني لي ولكم، حتى فارقا الحياة .. هذا البيت وطني، نشأت به جنيناً، فطفلة، فشابة، وأم، لكن لم أكن وفية حين وافقت على بيعه، أشعر أنني خنت ذكرياتي وأنني بعت تاريخي، وطني، عندما بعته..

- ماما، ما فعلته كان قراراً صائباً، كان صحيحاً .. كان لابد أن تغلقي باب الألم لتبدئي حياة أخرى بعيداً عما يُذكرك دوماً بأوجاعك. - فعلت ذلك لأجل تزويج أختك ولكي أؤمن مستقبلك أنت ايضاً، تحاملت على نفسي حتى أسدد ديون والدك وأضمن لكم معيشة راقية كما تعودتما ..

- إن شاء الله ربنا يوفقنا يا ماما وأقدر يوماً في استعادة بيتنا مرة أخرى ونعود إليه ..

- ما يذهب لا يعود يا ابنتي .. والمكان فقد روحه بموت أهله ..

- بالفعل المكان يستمد روحه من قاطنيه، وبيتنا مذ رحل عنه أبي وجدتي وجدي، وبسفر إيمان لم يعد ينتمي لنا ولا ننتمي له، فالوطن ليس التراب أو الجدران، الوطن هو الأهل والأحباء.

علمت بعد ذلك أن من اشتراه يخطط لهدمه وإقامة عمارة مكانه، وكأن هناك من يتآمر على الجمال، وكأنه يثأر منه بهدم كل آثاره ليرتفع بالأسمنت ليناطح السحاب ويطارد الكناري ويقتني بدلاعنها كركرة الشيشة و(كلاكس) الميكروباصات، فشارع الترعة الذي كان مسؤولا عن ري الأراضي الزراعية والجنائن، تحول إلى شارع أرضه من الإسفلت الأسود، وتم ردم الترعة ليحل مكانها صناديق القمامة ومخلفات البيوت والمقاهي التي تنتشر على الصفين ..

-٢-

"اليد الثالثة"

مدرسة ابتدائية صغيرة بأحد أحياء البساتين .. تجمع من البنات حول فتاتين تتشاجران وتمسك كل واحدة بشعر الأخرى.

تمر إحدى المشرفات لتوقف الشجار الدائر وتأخذ الفتاتين إلى حجرة المديرة، التي بدورها تحيل أمرهما إلى الأخصائية لتعطي كل واحدة استدعاء لولي الأمر.

تعود الفتاة إلى بيتها ..

"لم يكن بيتاً بل هو مدفناً .. عبارة عن حوش واسع بلا سقف، يتوسطه المدفن، وفي أحد الأركان حجرة سقفها عبارة عن تعريشة من الخشب والأسمنت، صممت لتكون استراحة لمرافقي الميت، والتي تحولت إلى سكن للفتاة وأسرتها" ..

تنادي الفتاة على أمها، سيدة في العقد الرابع، سمينة، طويلة، بيضاء، ترتدي عباءة سوداء متسخة بالتراب وتجلس أمام بوتوجاز صغير بعين واحدة يعمل

بالبوتاجاز كما الباجور قديماً، تطهو فوقه حلة من الطعام

تجيب الأم : تعالي يا روح ..

- أنا لن أذهب إلى المدرسة مرة ثانية.

- لماذا يا روح أمك ؟ (قالتها في غضب)

- البنات يضايقونني والمدرسين أيضاً لأني طويلة وأكبر واحدة في الفصل ويتهمونني بالغباء.

- طبعا لهم حق، لو كنتِ فالحة ونجحت كنت أخذتِ "الد ابلون"، لكن ماذا نقول؟ جسمك يكبر وعقلك مازال عقل طفلة، مازال في مكانه، خايبة ومازلت في أولى إعدادي وتنجحين بالكاد.

أنا لا فهم أي شئ من المدرسين، أنا سأقعد في البيت وأساعدك أو اشتغل مع أبويا.

- شغل؟! أي شغل هذا؟! أبوك تُربي ونادراً ما تأتي له جنازة كما وأن الموت يعاندنا وتآمر علينا مع الحياة .

- سأعمل معه أبيع على"الفرشة" في سوق الجمعة، لن أذهب يا امَّه إلى المدرسة خلاص، أنا كبرت وعندي ست عشرة سنة .

- يا اختي توفري، اقعدي ساعديني واشوف لك عمل في أي بيت حتى تجهزي نفسك.

"حديث الأم مع ابنتها لم يكن حواراً حميمياً كعادة الأمهات مع بناتهن حين ينضجن لتصير العلاقة بينهما علاقة صداقة أو أخوة، يبدو أن الأم كانت تعاني من خلل عقلي أو نفسي، فكانت تتعامل مع ابنتها "روح" كما وأنها ضرتها أو كأنها هي زوجة أبيها، ليس مع "روح" فقط بل مع أخويها أيضا اللذين لم يشعرا بدفء الأسرة وحضن الأم أو عطف ورعاية الأب، ربما قسوة الحياة هي التي حولتهم إلى كائنات بلا قلب

نهرت الأم ابنتها وقالت لها آمرة : ادخلي رتبي الحجرة لأن اليوم الخميس وأبوك على وشك الوصول.

تأففت الفتاة وردت : يووووه .. الناس كلها تفرح يوم الخميس إلا أنا النوم لي بالخارج في الحوش حيث البرد ونباح الكلاب!! يا امه الجو برد حرام عليكم..

تضع الأم كفها على فمها محاولة أن تخفي بسمة وترد : خذي التلفاز واسهري في الحوش سوف أخرج لك البطانية

- أمري لله ..

"جيراننا في المدافن والأطفال كانوا يعيرونني بأن أمي بلهاء .. كانت زيجتها بأبي محض مصادفة، كانت فتاة بلا أهل، قالت لي إنها هربت من الملجأ بعد محاولة أحد العاملين هناك اغتصابها، لم تجد مأوى إلا في المقابر، لتقع بين مخالب أبي الذي كان عائداً من غرزة ثملاً، فراودها عن نفسها وهي تتدثر بالعراء خلف المدفن الذي يقيم فيه، لحسن طالعها كان هناك بعض العمال، قد انتهوا من ترميم أحد المدافن المجاورة، سمعوا صراخها واستغاثتها، أمسكوا بأبي وضربوه وهددوه بتسليمه للشرطة، فآثر أن يعقد عليها وقد تحمس المارة طبعاً واعتبروا أنهم فعلوا خيراً وشهدوا على عقد الزواج..

تدخل "روح" الغرفة التي تعد غرفة نوم للأسرة جميعها، وكذلك غرفة معيشة، فهي الغرفة الوحيدة بالمدفن الذي يتوسطه سلم بتسع درجات يهبط إلى الأسفل، لنجد صالة مربعة صغيرة على يمينها بوابة حديد عليها قفل تغلق على غرفة لدفن السيدات وعلى اليسار نفس الأمر ولكنه مدفن للرجال.

المدفن مهجور منذ سنوات طويلة .. يبدو أن أصحابه إما هاجروا أو انقطعت سلالتهم .. مصائب قوم عند قوم فوائد.

يتسع الحوش لتجعل منه الأسرة صالة يتجمعون بها في الصيف ونهار الشتاء إن كان دافئاً، أما إن كان مطيراً فينتقلون الى دفء الغرفة الوحيدة، يجاورها حمام بلدي صغير بلا سقف .. الغرفة مستطيلة بداخلها سرير مرفوع على حجارة ليتيح بمساحة أسفله لتبيت تحته الفتاة في الشتاء البارد، حيث تفرش لها الأم مَرتبة مستهلكة وتغطيها بعدة ملاءات وبطاطين ممزقة حتى تمنع عنها رطوبة الأرض، وإن غاب الأب في عمل تبيت روح فوق السرير مع أمها ..

لـ "روح" أخوان يكبرانها، الولد الأكبر في سجن الأحداث لخمسة عشرة عاما، حيث قتل رجلاً في مشاجرة، مر منهم عامان.

الأوسط من ذوي الاحتياجات الخاصة، ورث عن أمه القصور العقلي ويعاني من صعوبة في التعلم، ولكنه أطيبهم، سافر للعمل مع نجار في مدينة دمياط، فلقد طرده أبوه قائلا :

لقد صرت رجلاً بشنب ولا يجوز لك البقاء هنا بين امرأتين، لابد أن تتولى الإنفاق على نفسك وعلينا، فلقد كبرت وقمت برعايتك حتى صرت بغلاً كبيراً، يومها بكى الفتى الذي أبداً لم ينل من أبيه أو أمه إلا كل إهمال، ولم ينس تسول أبيه به وهو صغير مستغلاً ضعفه العقلي، فكان يدر عليهما الكثير من النقود، حتى حين كبر كان يشتكي غباءه وشهيته الشديدة للطعام لزملائه بسوق الجمعة، فيعطفون عليه ويمدون أبيه بوجباته، التي كان يتناولها الأب ويترك له ولإخوته الفتات وبقايا الوجبات، كما وأنهم كلاب ضالة .

لقد سخَّر الله له تاجر موبيليا طيب القلب، عطف عليه وشعر بمهانة أبيه له فأخذه ليعمل معه بورشته بمدينة دمياط، متفاءلاً بوجهه مستبشراً بصحبته؛ فالناس تنظر لأصحاب متلازمة داون على أنهم ملائكة ترسلها لهم السماء بركة وخير.

هكذا صار الحوش حصرياً لروح والأبوين.

كثيراً ما شاهدت "روح" الأبوين في سهرة الخميس يمارسان العلاقة الحميمة، وهي تختبئ من ليل الشتاء البارد تحت السرير، وأبداً لم تكف ناظريها عن متابعتهما ..

وكثيراً ما تحسست أجزاء جسدها بحثاً عن المتعة التي يمارسانها وهي لم تفقه بعد جسدها وأسراره، حتى اكتشفت مكمن إثارتها بالصدفة حين لامس كفها بين ساقيها .

"روح"، فتاة طويلة القامة ممتلئة الصدر، صبيٌّ صدرها مازال عفياً، إنها تثور أنوثة، شعرها أسود بلون ليل المقابر وطوله ، إلا أنها ذات ملامح جامدة لا تكشف عن شخصية سوية، لا توصف أبداً بالطيبة، عيناها شديدتا السواد تعكسان غموضاً وأحيانا برودة مشاعرها، فلا تبدي حزناً حين موت، ولا فرحة حين عرس، فقسوة مصاحبة الموتى أفقدتها متعة الإحساس.

عاد الأب وعلى ذراعه كيس برتقال وفي جيبه علبة سجائر وبداخلها قطعة حشيشة .. نادى على روح وأمها سائلاً : الغدا جاهز؟

- نعم سأحضر الطبلية حالاً .. هيا يا "روح"

- يا ستي قولي لي ناهد، لا أحب اسم روح هذا .. ألا يكفي أننا نعيش في مقبرة لتسموننني روح، ماهذا ؟! هل أنجبتم عفريتا؟!

- يابنت انت أسمك تم ذكره في أغنية" الله يرحمه" فريد الأطرش حين غنى (ياروح الروح يا نور ياعبير)،

ورنت ضحكة وأكملت.. تمنيت أن يرزقني الله بابنة تشبه التي كان يغني لها وقلت سأسميها روح.

- يا سلام! هل أغفلتِ نور وعبير والذي رسخ في ذاكرتك اسم روح؟! عجبا والله!

- أنا اخترت ناهد .. ناديني بناهد

- طيب يا أختي. "قالتها ساخرة "

في المساء جهزت الأم الشيشة للأب، وجلس الجميع بالحجرة حول البوتوجاز لشرب الشاي، وأدار الأب الراديو على إذاعة أم كلثوم .. أرادت ناهد أن تشاهد التلفاز لكن نهرها الأب قائلا:

- الست تغني، وإن كنتِ تريدين التلفاز فها هو خذيه واخرجي إلى (الحوش)..

تأففت وسحبت نفسها حاملة التلفاز وخرجت حيث البرد، بعد ساعة أغلق الأب الباب وجلست ناهد تنهشها الغيرة قبل الفضول، بعد دقائق اتجهت إلى الشباك الجانبي للغرفة الذي يطل على الحوش، وبدأت في مراقبة أبيها وأمها، وظهر على عينيها وحركاتها الإثارة جلست أسفل الشباك تتلمس جسدها حتى قضت وطراً

ونهضت لتدق عليهما الباب وقالت بصوت عالٍ يمتلئ بالغيرة : أنا بردانة ولن أنام

نهض الأب وفتح الباب وهو يسبها ويسب أمها، ونام ليلته غاضباً

"علاقة أبي بأمي مجرد وعاء يفرغ فيه شهوته، لم يكن يخطط للإنجاب منها ولم يشغل باله بنا .. الشهوة هي التي أتت بنا إلى هذا العالم لنكون عبئاً على الطبيعة، وربما كنا كما الدود الذي يخلصها من الفضلات.

للطبيعة ثلاثة أيادٍ .. يد تزرع وتحصد، ويد تصنع وتبني .. إنهم يحضرون الحياة أما الثالثة فتدفن .. نحن اليد الثالثة التي تحضر الموت .

-٣-

"نور"

عدت من عملي كمعدة ومترجمة بإحدى القنوات الفضائية بعد الخامسة عصراً، كان نهار صيف حار جداً ورطوبة عالية .

ركبت سيارتي في طريقي إلى البيت حيث تنتظرني، كانت هبة من السماء لتصحبني في رحلتي هنا على الأرض تؤنس عزلتي وتحيل البيداء إلى خضار..

ركنت السيارة بجراج العمارة المنعزلة عن الحياة .. المدينة هنا تحيطها شوارع تتدرج من الغنى الفاحش إلى العشوائيات المتطرفة في الفوضى .. المعادي لها أجواء خاصة بها، ولها سمات تشترك فيها مع الأجواء المصرية عامة.

هنا تزدحم المدينة بالمهاجرين من الصومال وأثيوبيا والصين، بل وكوريا وبعض العائلات السورية، هذا بالإضافة إلى المهاجرين من قرى الريف والصعيد خاصة أحتاج الأمر مني إلى دراسة أسباب تمركز الهجرات هنا والتي كانت أحد الموضوعات التي ناقشتها في أحد برامجي ..

المعادي كانت من المدن التي تتميز بالرقي والتحضر وكأنها أحد أحياء مدينة أوروبية .. كانت أمي تحكي لي أنها اعتادت في شبابها أن تتحرك بالدراجة، وكذلك جدتي التي لم تكن تعرف الحجاب أو الخمار، بل كن يرتدين أزياءهن على الموضة الفرنسية، ولم يكن هناك من متحرش أو منتقد لهن ..

الآن الوضع صار كما الهرم المقلوب، المظهر أكثر تحفظاً والسلوكيات صارت كما المباني المنتشرة حول المعادي، عشوائية.

العشوائية تحكم كل تصرفاتنا وسلوكياتنا وانزوى الجمال حتى أصبح غريباً.

عدت لأجد "نور" بالمطبخ تعد لنا كعكة الخميس، التي نتناولها في الشرفة مع كوبين من الشاي باللبن ونتسامر، ثم ننتقل إلى غرفة المعيشة لمشاهدة التلفاز لمشاهدة قناة (بولي وود) الهندية، وليته يكون فيلماً رومانسياً لـ "شاه روح خان" الممثل المفضل لنور و لي، ثم ننام سوياً.

نور في السابعة عشر من عمرها، أصبحت صبية جميلة، سمراء، رقيقة، طويلة، ذات شعر بني متموج مما منحها تميزاً وتفرداً وكأنها خرجت من رحم ملكة

رومانية .. عيونها عسلية تلمع كما صفار الذهب في ضوء الشمس تحمل الكثير من ملامح أمي وأختي، وأخذت من أبيها جمال شفتيه وصغرها ..

في تلك الليلة قصت لي موقفاً أخافني وآثار قلقي عليها، فهي تجلس بمفردها لساعات طويلة فأنا أنشغل عنها حتى الخامسة مساء بل وأحيانا تضطرني الظروف إلى السهر ..

قالت لي : هناك امرأة سألت عليك أكثر من مرة، قالت إنها ساكنة جديدة بالعمارة .. بدا واضحاً عليها أنها شعبية وتعليمها محدود .

- كيف عرفت أن مستواها بسيط؟

- أنصتِ جيداً لي سيدتي .. أنا بفراستي وخبرتي اللامحدودة وقراءاتي اللانهائية استنبطت ذلك، فرغم أنها ترتدي "الجينز" و"شميز" و"تربون"، إلا أنها كانت ترتدي الكثير من الأساور الذهبية، وسلسة كبيرة بها مصحف وجنيهات من الذهب، وطريقة كلامها ومخارج حروفها تكشف عن مستوى تعلميها، سيدة شعبية.

"كانت نور تتحدث وهي تحرك نظارتها فوق أنفها في حركات ضاحكة مُقلدة نجوى حين تتحدث بالفصحى..

- أذن . عندك كل الحق

سألت نور : ألم تقل لك فيما تريدني يا موسوعة هانم ؟

أجابت بعد أن تنحنحت: سألتني عن موعد عودتك وأخبرتها وقالت أنها ستمر عليك.

- غريب .. عموماً لعله خير، لكن نور حبيبتي، رجاء لا تفتحي الباب بعد ذلك لأحد لا نعرفه وإذا جاءت مرة أخرى أخبريها أن تتصل بي على موبايلي .. كما تحبين؟

- لك ذلك. نونا

"نعم نونا، فهي تناديني بلا ألقاب، لا تقتنع أني أم، هكذا هم أبناؤنا، حين تطول قامتهم يعتقدون أنهم تساووا معنا في العمر، بل وسبقونا في الخبرة .. أنا أرحب بـ "نونا"، فلا أريد أن أدرك مغادرة السنين لعمري".

نمنا في هذه الليلة باكراً، فلقد أصابني الإرهاق من ضغط العمل في القناة، فالأحداث منذ عدة سنوات تتوالى سريعاً وتنقلب الأخبار أيضاً سريعاً، وكل يوم هناك الجديد والمثير، إنها مصر الغاضبة الثائرة بعد يناير.

- ٤ -

اليوم الجمعة، أستيقظ السابعة، أرتدي أنا ونور الملابس الرياضية وننزل للتريض حول البيت، فالمنطقة هادئة لا تمر بها السيارات كثيراً.

عدنا بعد نصف ساعة، ركبنا المصعد وهنا تذكرت موضوع السيدة التي دقت بابي وأنا غائبة، وعدت لأسأل الحارس عنها، تعجب الحارس وقال :

- لا أعرف أحداً بهذه المواصفات سيدتي .

سألته : هل تريد أن تقنعني أنها عفريت؟ كيف يدخل غريب العمارة دون أن تطلب بطاقة هويته وتعرف لمن سوف يصعد؟

- نونا ! أنا قلت لك إنها من السكان الجدد.

وجهت حديثي للحارس : هل هناك ساكنة جديدة بهذه المواصفات؟

الحارس : سأبحث وأرد على حضرتك إن شاء الله

لاحظتُ أن الحارس تلجلج وبدا على ملامحه شئ من الخوف، ولكني لم أُعر الأمر اهتماماً، فلقد فسرت ذلك

بأنه ربما خوف من اتهامي له بالتقصير وربما يتسبب له هذا الاتهام بالفصل.

صعدنا إلى شقتنا، تناولنا الإفطار وأخذت فنجان قهوتي ودخلنا غرفة المعيشة، جلست على (الفوتيه) وجلست نور على الكنبة المقابلة، هي تقرأ سورة الكهف وأنا كذلك.

بعد أن انتهينا من قراءة القرآن، جلسنا نتبادل الحديث

- نونا ! أنا لا يروق لي الدروس الخصوصية الكثيرة

تركت فنجان القهوة وانتقلت للجلوس بجانبها وأمسكت بيديها: "أريدك من الأوائل هذا العام، أنت داخلة على الثانوية ولابد تكوني مؤهلة في كل المواد لهذا السباق القاتل، نونا، أنا لا أفهم كيف تهاجمين مافيا الدروس في برنامجك وتنادين الناس بالاستغناء عن الدروس وفي الوقت نفسه مصممة على ارتكاب نفس الخطأ .

- نور، أنت وحيدتي ولا أريد أن أكون مقصرة في حقك كما وأننا مجبرون على مسايرة النظام السائد حتى يتم تطويره.

- لكنه نفاق يا نونا .. اعتدت منك عدم السكوت على الخطأ وضرورة تعديله، هكذا علمتني ..

- وماذا إن لم تحصلي على المجموع الذي يؤهلك للكلية التي تحلمين بها ؟ ماذا سيكون إحساسك ؟

نحن نغير ما نستطيع أن نغيره ونُجبر على مسايرة الواقع في الأمور التي ليس بإرادتنا تغييرها ..

- أحاول مساندتك حتى تصلي إلى ما تتمنين بعدها ستكون مسئوليتك ومسئولية جيلك في التغيير.

- غير مقتنعة أن هذا مبرر أن أتلقى هذا الكم من الدروس وبهذا المبلغ الرهيب.

- لا تشغلي بالك إلا بدروسك .. قولي لي أي جامعة تحلمين بها ؟

- أريد أن ألتحق بكلية العلوم

"سرحت فيما قالته نور، وكيف اختارت تلك الكلية، وكيف أن جينات أبيها تطل من عينيها ومن شخصيتها، كان عالماً وكان من المتوقع له أن يصل لمكانة عالية عالمية، لو أتاح له القدر المزيد من العمر لكانت أبحاثه العلمية وإسهاماته أثرت النتاجات العلمية، لولا تلك الحادثة التي أنهت حلمه بل وحياته أيضاً وحياة إيمان، أختي الحبيبة".

- نونا فيم تسرحين؟

- لا شئ حبيبتي، أنا سعيدة أنك محددة هدفك، لكن أنا لا تستهويني كلية العلوم، ففي بلادنا لا مستقبل له، لقد ارتبطت هذه الكلية بالكوارث وتركت بداخلي انطباعاً سيئاً أخشى على نور أن ترث مع عبقرية أبيها قدره"

- كيف يا نونا؟ هي من أهم الكليات في العالم كله ولا أعتقد أن هناك تطوراً أو تنمية دون الاهتمام بخريجي تلك الكلية، فلا دولة نمت ووصلت لمصاف الدول المتقدمة إلا بعلمائها ؛خاصة من هذه الكلية، كما إنني أريد أن أكون مثل بابا الذي أنام كل ليلة على ما تحكينه عنه وعن أبحاثه وما قدمه للعلم.

أنا لا أفهم كيف نهمل كلية بمثل هذه الأهمية ونتخلى عن خريجيها ؟! لقد أنجبت عظماء العالم، أحمد زويل والباز ومصطفى مشرفة وسميرة موسى يا نونا وغيرهم كتير من العلماء، وبابا.

- عموماً هذا سابق لأوانه .

هيا نصلي الظهر ونحضر الغداء لأن بعد العصر سوف تأتي "أنطي" سميرة وأبناؤها لزيارتنا.

- وأنا سوف أعمل لكم كيكة البرتقال التي تحبونها، وخاصة سارة وأمجد.

الموت يمنح -أنصاره الحياة"

-٥ -

اليوم الجمعة يأتي زوار المقابر، وهو يوم يستدعي لديهم الحزن ويقيم في أحواشنا العيد، حيث تمتلئ ثلاجات سكان المقابرالمقفرة بالفاكهة واللحوم، وتعمر جيوبنا بما يكفينا لعدة أيام لأن أغلب الأيام أبي بلا عمل، بل بلا فائدة، اللهم فائدة إشباع معدته وجسده وجسد أمي من الشهوة وإغاظتي بالنوم في صقيع الشتاء بالحوش، الذي يتساقط برداً ومطراً، فهو بلا سقف وغرفة نومنا بلا ساتر.

ذهبت هرباً من بيتي إلى المدافن المجاورة، فالمدفن الذي نعيش فيه لا زوار له منذ عدة سنوات، وكلما سألت أمي ردت : إلهي ما تطأ أقدامهم هذا الحوش أبدا إنه آوينا وساترنا.

"لا أدري أي نوع من الستر الذي تتحدث عنه هذه المرأة، مرأة؟! أنا المرأة الوحيدة في هذا البيت، كلما نظرت إلى جسدي أتحسر على أنوثتي المدفونة في هذا الوحل.

ذهبت إلى الحوش الذي يبعد عن حوشنا بعدة أمتار، فنحن في مدفن بعيد عن باقي المدافن؛ مما منحنا الكثير

من الخصوصية والتميز، إلا أنني أفتقد تواجدي بالقرب من الجيران بحثاً عن الونس .. تحملت من الزوار نظرات الاشمئزاز والرفض حتى أعود ومعي ما يكفيني، سوف أخفي ما أحصل عليه من نقود عن أبي وأمي وأعطي لهما ما جمعته من فاكهة وطعام، إنه حصاد تعبي وإهانتي .لا يحق لهما أخذ ما تعبت في جمعه .

عدت إلى البيت لأجده خاوياً من أمي وأبي، لا أدري أين ذهبا، ربما عندهما دفنة أو ربما ذهبا لزيارة أحد، ولكنني سعدت بغيابهما ..

نظرت خلفي لأجد شاباً عمره كما عمري إن لم يكن يصغرني بقليل، وجدته يتبعني وفي عينيه نظرة كلها اشتهاء، أغويته بنظراتي حتى دخل المدفن .. سألته:

- هل أنت تائه؟

لم يرد، اكتشفت أنه أخرس، جذبتني رائحة العطر الذي يضعه، لم أشعر إلا وأنا أسحبه إلى داخل الغرفة وشددته إلى السرير، أخذت أشده من البلوڤر حتى سحبته تحت السرير، تحسست أعضاءه فلم يتحمل وخلع بنطاله ورفعت عباءتي وأخذت أقبله كما رأيت أمي تفعل، وحين أوشكنا على ممارسة الحب، سمعت صوت

أمي وهي تدخل ومعها رجل وامرأة يبحثان عن ابنهما الغائب، وضعت كفي على فمه وأسدلت ملابسي ونمنا في صمت حتى انصرفت أمي مع الرجل والمرأة، ثم دفعته خارج السرير وخرجت بعده وتواريت أسفل الحوش وأشرت إليه بالانصراف وألا يذكر ماحدث، خرج والرعب يملأ عينيه، وملابسه وجسده في فوضى، أخذ يهندم نفسه ويُدخل قميصه داخل بنطاله وانصرف، وتركني وداخلي غضب ورغبة تحرق جسدي. في هذا اليوم زادت كراهيتي لهذه المرأة التي تستمتع بالدفء والحب وتحرمني من البيت والمتعة، وقررت أن أستحوذ على رجلها، فمن حقي أن أعيش، فهي قد أمست كهلة وعيب عليها أن تستمتع وتترك صبية مثلي يأكلها الجوع إلى الحب..

***

- ٦ -

" الشروع في الأحلام"

النمسا / ڤيينا

- إيمان!

- أنا هنا بالمطبخ يا عاصم

"دخل عاصم متهللاً سعيداً، فأخيراً وجد فرصة عمل لكي يواصل دراساته العليا.

حضنته مباركة له على توفيقه في بحثه، فلقد أوشكنا أن نكون أبوين، وستزداد التزاماتنا وأعباؤنا، لقد التحق عاصم بكلية الكيمياء بجامعة ڤيينا لعمل الدكتوراه، ونجحت أنا في إيجاد عمل بأحد دور الرعاية لإتقاني الألمانية والعربية.

استتبت الأمور وجلست أمام" اللاب توب" لأطمئن والدتي ونجوى على أحوالنا لعلي أضفي شيئاً من السعادة على حياة أمي، فمنذ موت أبي وهي في حالة من الحزن والقلق الدائم المميت عليّ وعلى أختي.

ڤيينا بلد كما القيثارة، جمالها يصحبك إلى الحلم، ترفعك معها إلى جنان قاطنيها آلهة رومانية .. هي بلد صغير وجميل وهادئ، يعرف عن شعبها عشق الموسيقى والفن، يتسمون بالرقي والتحضر، النهار للعمل والمساء للحياة والفن .

كل إنسان هنا في حاله يُقدس العمل والعلم، وهناك احترام للعلماء وتوقير لهم.

تخصص عاصم من التخصصات التي تلقى اهتمام وتقدير ودعم من الحكومة والجامعة ..

مررنا بفترة جمود بسبب الإعلام الذي صدَّر للعالم أن المسلمين إرهابيون، ولكن ما لبثت الأمور أن هدأت، فهي شعوب لها ثقافة تحترم الآخر وتحترم الحريات، وعقلية تفرز الغث من السمين ..

عشت مع زوجي حياة جميلة، النهار بالعمل والليل لاستكمال أبحاثه استعداداً لمناقشة رسالته، حاولت أن أهيئ له الأجواء وأوفر له الإمكانيات لذلك، وعادة أقضي الليل في تجهيز الطعام لباقي الأسبوع.

رزقنا الله بابنتي التي اختارت اسمها نجوى أختي، أسمتها "نور" وحين سألتها لماذا نور؟! قالت بشارة أن تكون ضوءاً ينير كآبتنا التي طالت .. وبالفعل كانت،

فلقد تحسنت ظروفنا وتألق عاصم في كليته وكلما ظهرت ابنتي علت الابتسامة على وجه أبيها ووجهي، وكأن انعكاس نورها أضاء وجوهنا بهجة.

يقال إن لكل إنسان نصيب من اسمه، أو حظ من اسمه.. أتمنى لابنتي أن تظل نوراً يضئ حياتها ولمن تظهر في حياته.

سارت الأمور على نحو جيد وبدأنا نتنفس الصعداء وننعم ببعض الرفاهية بعد معاناة استمرت شهوراً، إنه وجه نور، كما نقول في مصر، "البنات رزقها واسع"،

كان من المفترض تواجد ماما معي ولكن الظروف لم تكن تسمح ولا الحالة المادية، ولا كان من السهل أن تترك ماما أختي نجوى وحدها، لكن دعواتها كانت تصحبني دوماً..

عاصم زوج وصديق وأب حنون، لم يغفل أبداً عن شعوري بالوحدة بعيداً عن أسرتي؛ فكان كلما سنحت له الفرصة يصحبني في أي إجازة للترفيه والسياحة بأرجاء ڤيينا ..

تعرفنا على أسرة عربية من لبنان، نجحت في أن تجد لها مكاناً هنا ونفوذاً، لقد نجحت في افتتاح كافيتريا تقدم المأكولات الشامية، فالنجاح هنا أن تكون مميزاً مبدعاً

ولست مقلداً، وهم نجحوا في أن يكونوا مختلفين، مميزين وكانوا كما الأهل .. كنت ألتمس رائحة الوطن بصحبتهم وكذلك عاصم ونور ..

كثيراً ما كنت أتأمل ملامح نور وكأني أخزن وجهها بداخل قلبي، أنظر في عينيها، أغوص بهما، ألتمس الأمان وكأنني أختبئ فيهما، أحتضنها وأشم رائحتها وأجدني أبكي .. لا أدري لم أخاف عليها وأشتاق إليها كلما تركتها بالحضانة "Nursery".

بعد انتهاء ساعات العمل، التي تمر ثقيلة وطويلة لأنها تأخذني بعيداً عن نور، أجري متمنية أن تذوب الطرق لأصل إليها وأضمها في حضني.

كثيرا ما كنت أشعر بتأنيب الضمير وبأني أم مستهترة، فكيف أتخلى عنها في هذه السن وألقي بها بالحضانة وهي التي كان يجب ألا تغادر صدري، لكن أتذكر أني وأبوها نتعب لنوفر لها حياة تليق بها ولمستقبلها، أصبر نفسي وأسكت ضميري بأنها أيام بسيطة وسنجتمع كلنا في بيت راقٍ.

كل النساء هنا مثلي مشغولات ببناء المستقبل، ولكن لا يشعرن بما أشعر به، بل ينظرن إلى دور الحضانة كأسرة موازية هامة لكي ينشأ الطفل معتاداً على

الاستقلالية وخشونة الحياة، فلا يخرج أو تخرج رجلاً مدللاً أو فتاة لا تعرف الاعتماد على الذات.

نجح عاصم في استكمال رسالة الدكتوراة ومناقشتها، واحتفلنا بنجاحه وعيد ميلاد نور الثالث، وإذا به يفاجئني برحلة امتنانا منه لتعبي معه وطلب مني أن أترك نور لجيراني ليوم واحد فقط .

وافقت على مضض حتى لا أعكر صفو حلمه وبدأت في الاستعداد للرحلة، وهاتفت "ناتالي" صديقتي اللبنانية لأطلب منها استضافة نور .. رحبت بذلك جداً وطمأنتني أنها ستكون في أمان وأنها ستكون تحت رعايتها هي وابنها "نيقول"، الذي كان يكبر نور بعدة أشهر..

لم أشعر بالسعادة لتلك الرحلة، فلقد امتلأ صدري بالخوف وإحساس لم يفارقني بافتقاد ابنتي رغم أنها كانت مازالت بحضني..

وتهيأنا للسفر، ودّعت نور ونتالي وتمنوا لنا رحلة سعيدة، تركت مع نتالي أرقام تليفونات أسرتي بالقاهرة ربما تحتاجها تحت أي ظرف، طمأنتي وطلبت مني ألا أكون متخوفة وموسوسة وأن أستمتع بالرحلة، وسافرت مع عاصم إلى جبال الألب.

-٧-

"وصعدت إلى الأرض"

اليوم أخذتني أمي إلى عائلة بالمعادي للعمل لديهم كجليسة لطفلتهم، يبدأ عملي منذ السادسة صباحاً وينتهي السابعة مساءً، كان عمر الطفلة عامين، وكانت معي الجدة ولكنها غير قادرة صحياً على خدمة الطفلة، والأم تعمل مع زوجها في شركتهما الخاصة.

لم أدرك أنني بعثت من الموت إلا حين رأيت هذا المكان، شقة كبيرة فخمة، لا أعرف أسماء الأشياء التي أتعثر بها في هذا المكان، فكل ما تعاملت معه في المدفن الذي أسكن فيه السرير والمرتبة القطنية التي تحجر قطنها فأمسى حجارة تشك في جسدي، وأعرف أيضاً الثلاجة العرجاء التي تستند على حجارة، والتلفاز الذي تهتز الصورة والممثلون داخله، وكأنما يعانون داخل سجن ويريدون كسر شاشته ينشدون الحرية والإفلات منها، فلقد كانت كما القفص، وكم كانت سعادتي حين اشترت أمي دولاباً من سوق الجمعة لأعلق عليه ملابسي، كما أرى الممثلين على الشاشة،

وهناك تلك الحديدة البارزة في الحائط والتي يستخدمها أبي ليعلق عليها جلبابه، وكم من مرات اصطدم بها إخوتي حتى تركت علامة في جبين أخي وشوهت وجهه، وكانت تلك العلامة سبباً رئيسياً في نفور الناس منه ورفضهم أن يعمل معهم وخوف الأطفال منه؛ فلقد أعطت انطباعاً أنه بلطجي أو مسجل خطر، فلم يجد أمامه مفراً من العمل مع أبي في دفن الموتى، وأحياناً في بيع الخردة، حتى حدثت تلك المعركة في سوق الجمعة بينه وبين أحد الباعة، والتي انتهت بأن دفعه أخي ليسقط الرجل أمام سيارة لتدهسه فيسقط قتيلاً، كانت تلك العلامة بوجهه عاملاً منفراً لتصديق دعواه وانتهت المحاكمة بإلقائه في دار رعاية الأحداث.

لم أستمر طويلاً في عملي، فأنا لا طاقة لي بالتعامل مع الأطفال ولا أتقبل الأوامر، ولا رغبة لي في أن أعيش حياة ليست لي .. هذه الشقة الفخيمة لا تنتمي لي ولا أنتمي إليها، أنا ابنة المقابر، رفيقة الموتى، حياتي هناك حيث الصمت والصبار، والحوش بلا سقف، السقوف تشعرني بالاختناق.

في يوم بعد انصراف الأم، بعد أن صبت في أذني أوامرها السخيفة، مثل درجة حرارة البيبرونة، والبودر الخاص بجسد الطفلة، وموعد نومها، وشربها لنوع

معين من الماء، ومواعيد طعامها، التي لم أسمع منها شيئاً.

دخلت إلى حجرة الطفلة وجلست بجوارها، وحينما سمعت بكاءها اعتقدت أنها عطشة وفي حاجة إلى الماء، دخلت إلى المطبخ وملأت كوباً من الماء المثلج، وحملتها بين يدي وصببت قطرات الماء داخل فمها، لتنتفض بين يدي وتتنفس بصعوبة، تصورت أني قتلتها، تركتها على سريرها وأسرعت إلى حجرة الجدة لأستنجد بها، أمسكت عصاها التي تتعكز عليها ودخلت مسرعة إلى حجرتها، حملتها بين يديها، ورفعتها وأخذت تربت على ظهرها وتحتضنها، وتستعين ببعض آيات القرآن إلى أن تنفست، نظرت إليّ وسألتني ماذا أطعمتها؟

أجبت بأنني لم أطعمها شيئاً بعد، بل سقيتها قليلاً من الماء، ونظرت إلى الكوب وأمسكت به وسألتني : هل سقيتيها ماءً مثلجاً؟ أنت مهملة، البنت سوف تصاب بالبرد وربما التهاب بصدرها لا شك، ثم كيف تسقينها من ماء غير الماء الذي أوصتك أمها به ؟!!

سكتُّ، فلم يعجبني صوتها العالي ولم أنصت لأي من صرخاتها.

بعدما عادت الأم أعطتني عدداً من الجنيهات وطلبت مني ألا أعود

***

عدت إلى المدافن، هنا بيتي، هنا أشعر بمملكتي وحريتي، هنا أتنفس رائحة تراب الموتى المخلوط بماء المطر، هنا أشعر بالدفء رغم قلة الغطاء، لا أدري لِم لا أشعر بالأمان وسط الأحياء، أجد راحتي في الانفراد بنفسي وبساطة الحياة هنا.

سألتني أمي عن أخبار عملي فأخبرتها أني تركته ولن أعود ولن أعمل في خدمة أحد، بل سأعمل في بيع الخردة مع أبي.

في الصباح خرجت أمي إلى السوق الذي يبعد كثيراً، فهو في الإمام، تركب (أتوبيس) إلى هناك وأحيانا تضطر إلى المشي توفيراً للنفقات، عرضت عليها أن أصحبها ولكنها رفضت وطلبت مني أن أنظف الحجرة وأنتظر أبي حين يعود لتلبية طلباته .

نظفت الغرفة ودخلت لأستحم، بجوار غرفتنا حمام ضيق بناه أبي بلا سقف من بقايا الطوب الذي يفيض من ترميم المقابر، كان الجو بارداً ففضلت الاستحمام في الغرفة كما تفعل أمي أحياناً، أشعلت البوتوجاز ذا

الشعلة الواحدة، ورفعت فوقه صفيحة، ثم جلست في الطشت للاستحمام وفجأة دخل أبي دون أن يعرف أني خليعة الملابس، نظر إليّ ثم أغلق الباب خلفه وهو يسب ويشتم في، انتهزت الفرصة وقلت له : سوف أنتهي سريعاً فقط ناولني يا أبي المنشفة حتى لا أبلل الأرضية.

شعرت أنه كان ينتظر ذلك بلهفة، دخل الغرفة وهو ينظر إلى الأرضية مُدعياً عفته، أغلق البوتوجاز ثم حاول سحب المنشفة من على الحديدة وألقى بها إليّ، جففت جسدي ولففتها حول خصري وخرجت من الطشت، يبدو أن أبي كان منتشياً، فلقد رأيت الاحمرار قد غطى عينيه ويسير بلا اتزان، حاول الخروج ليمنحني فرصة أن أرتدي ملابسي ولكني سبقته بأن قلت له:

- يا أبي الجو بارد بالخارج إياك والخروج، أنا سأضع ملابسي بسرعة لكن فقط أغمض عينيك.

"قالتها وهي تخضع بالقول في إغواءٍ صريح"

تحركتُ أمامه وتعللت بأني أريد أن أبعد عن الحصيرة حتى لا تبتل بالماء، فاقتربت منه وشممت رائحة فمه الذي يفوح منه الحشيش والشيشة، فإذا به يحتضنني ويأخذني إلى السرير، جاءت لحظتي التي تمنيتها، أنا

هنا سيدة جسد هذا الرجل، لا السيدة الشمطاء التي تشاركني المكان.

تركت جسدي بين يديه ورحت في نشوة وألم بسيط، نسيته مع لذة الإحساس بأنوثتي.

فجأة تدخل أمي لأفيق على صرخاتها، تلقي ما بيديها من مشتريات وتصرخ قائلة :

- يا فضيحتي يا ابن الكلب ماذا تفعل؟!

نهض أبي محاولاً إسكاتها، كان الطشت ما زال في وسط الغرفة، أمسك أبي بها محاولاً تكميم فمها، فهي لم تكف عن الصراخ والشتم واللعن فيه وفي، لتنزلق قدمها في الطشت ويحاول أبي دفعها لتسقط فوق الحديدة لتخترقها وتنفجر نافورة من الدم، أقف في حالة من الذهول وكأنني في كابوس، يحاول أبي نزع أمي من الحديد، لقد غرزت الحديدة في رأسها بجوار أذنها اليمنى، تمسكت بجلبابه لا أدري أكانت تستغيث به أم أرادت ضربه، لكنها تفقد الوعي، يضعها أبي على الأرض ويحاول أن يسد رأسها بالمنشفة، يجلس بجوارها ويمسك برأسه ويهمهم بكلمات :

- ياخبر أسود اصحي يا نعيمة اصحي .

نعيمة؟! كيف نسيت اسمها؟! نعم نسيته، فلقد اعتاد أبي أن ينادي عليها بكلمة "يا بت" لايسبقها اسم ولا يليها اسم، كأنها خادمته ويبدو أنها اعتادت ذلك وأشك أنها نسيت اسمها .. وكيف نعيمة؟ يا للأسماء! أي نعيم وأي نعمة؟!

تمر الدقائق كما الساعات وأنا في مكاني واقفة بلا حراك أنتظر أن تنهض أمي من رقدتها وتمسك بالسكين لقتلي.

أصحو من أفكاري على قول أبي : ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

ينظر إليّ ويطلب مني إحضار برطمان البن، أحضره إليه، يحاول أن يسد الجرح بالبن ليجده أوسع من أن يعالج بتلك الوسيلة، يربط رأسها ويمسح الدم المتدفق من رأسها، تمر الساعات ونحن جلوس بجوارها .

يرفعها أبي وأنا لنضعها على السرير، أغطيها وأجلس بجوارها.

لا أدري لِمَ لم أتمن لها الشفاء، بل تمنيت أن ترقد إلى الأبد فصحوتها معناها فضيحتي.

لا أدري هل رحت في إغماءة أم نمت هروباً من الواقع على أمل أن أصحو لأكتشف أنه كابوس ليس أكثر، فأرى أمي ممسكة بالسكين وتضعها فوق رقبتي محاولة ذبحي، أحاول الصراخ ولكنّ هناك شيئا جثم على صدري وصوتي فلا أستطيع التنفس أو الدفاع عن نفسي، لأفيق على يد أبي توقظني .. إنه الكابوس ،أما قتلي لأمي فهو الواقع .. مرت دقائق وإذا بأبي يرفعها من السرير بين ذراعيه .. سألته : إلى أين أنت ذاهب بها؟

رد: إنها ماتت

- ماذا تقول؟ لا أمي لم تمت، انتظر أرجوك ؟

لم أصر في رجائي بل كان مشهداً تمثيلياً كما كنا نفعل حين تدخل جنازة إلى المقبرة، كنا نجامل بالصراخ أحياناً والعويل الذي كنا نتقنه كما المعددة التي يستأجرونها لإشعال الجنازات وإضفاء الحزن عليها، مهنة انقرضت ولكن ما زلنا نؤديها في حياتنا اليومية، ننافق بدرجات.

- سأدفنها.

- لنحاول مرة أخرى ونحضر لها طبيباً.

جملة رددتها بلا حماس، فلو جاء الطبيب ماذا سنقول له، يا لها من مصيبة وفضيحة!!

- قلت لك إنها ماتت

نزل بها إلى المدفن وفتحه ووضعها هناك وأغلق المدفن وصعد.

تركني وخرج، لا أعرف إلى أين ذهب..

ماذا يحدث؟ هل أمي ماتت بالفعل؟! هل انتهى كل شئ هكذا؟

ولكني لا أشعر بأي حزن أو ألم أو حنين، يبدو أن اعتياد الموت أصابني باللامبالاة، بل وقسوتها وعدم قدرتها على لعب دور الأم، فأنا لم أشعر بأمومتها بل كانت بلا دور ولا حماية، حتى حين كان يقسو أبي علي وعلى إخوتي لم أرها ولو مرة تمنعه من ضربنا أو تحول بينه وبيننا، ولم تهون علينا ما لقيناه من هذا الرجل.

شعرت بشئ من الارتياح في موتها، فحياتي قايضتها بحياتها، إنه العدل .. أرحتها من حياة لا معنى لها.

قمت وأحضرت دلواً به ماء وشرعت في إزالة الدم من أرضية الغرفة ودرجات السلم إلى المقبرة، وكان الأمر

صعباً جداً، خاصة التخلص من ماء التنظيف الذي ألقيته على مراحل وحاولت أن أردمه بالرمل، فرائحته كانت مثيرة ومخيفة..

اعتدت الحياة مع الموتى والليلة الصحبة تختلف، إنها أمي ماتت غاضبة، قتيلة أبي وقتيلتي، لا نوم بعد اليوم فلن تتركني أمي لأهنأ بعد الآن، والبيت هنا لفظني.

ولكن إلى أين أذهب وأنا التي لا تعرف الحياة فوق الأرض؟! .

اعتدت أن أعيش تحت، لا .. لا .. لن أغادر، لا حياة لي مع الأحياء.

-٨-

"حلم لم يعرف النهار"

النمسا / فيينا

جروس جلوكنر / أعلى جبال الألب

سيارة تحترق، حادثة لانزلاق السيارة بعد اصطدامها بكتلة ثلجية، تنقل سيارة الإسعاف زوجاً وزوجته إلى المستشفى في حالة خطرة، سيدة لبنانية تحمل طفلة وتبكي .. "يا لحظك التعس يا طفلتي!! جئتِ إلى الدنيا ولك حق فيها أن تنعمي بالدفء في حضن أمك، ولكن تشاء لك السماء أن يحتضنك الثلج والألم .. الله يرأف بك وبأبويك".

زوج لبناني ينصحها بضرورة الاتصال بأهلها بمصر، هذا من حقهم، ولابد أن يأتوا، فالأمر جلل .. خطير، وربما لا يرون ابنتهم والزوج مرة ثانية.

- لا تقل ذلك، سيكون الله رحيماً وسيشفى إيمان وعاصم.

تستجيب الزوجة وتقوم بالاتصال بمصر، فلقد تركت إيمان أرقام أسرتها بمصر لديها لأي طارئ.

***

أتلقى وأمي خبر الحادث وتكاد أمي تجن، فالمسافات تتعاظم بينها وبين أبنتها والأيام كما السرطان تتكاثر لتلتهم الصبر والروح لتبعدها عن اللحاق بها لإنقاذها.

مجبرتان على التحرك لحجز تذاكر السفر، وكل تأخير للإجراءات يقتلها ويقتلني، إلى أن نتمكن من السفر، نصل إلى المستشفى وكلنا أمل أن يكون مجرد حادث وسينتهي بمجرد كدمات ونعود بهما إلى بيتهما، ليصفعنا القدر بخبر مقتل إيمان وعاصم منذ ثلاثة أيام، تسقط أمي فلم يتحمل قلبها مشهد ابنتها، التي زفتها قريبا، المُسجاة بثلاجة الموتى فالمصيبة أعظم من أن تتحملها، وكان دافعاً لها في استقبال الموت بلهفة، فبعد موت أبي وما تحملته بعده من ديون جعلها رافضة للحياة، وما صلب عودها إلا احتياجنا إليها، وها هي تودع فلذة كبدها .. ادعت التماسك والصبر وهي الرافضة للفراق.

لحظة رؤيتها لإيمان مفارقة جعلتها تتلهف على مصاحبتها، دخلت في جلطة ونامت بنفس المستشفى التي يرقد بها جسد ابنتها وزوجها، وكان عليّ أن أتحامل وأتلقى تلك المصائب واقفة على قدمي، فلا وقت للحزن أو البكاء، فهناك طفلة ضاع منها الاب والأم وتحتاجني، ولابد من أن أكمل مهمتي في إعادة جسد

حبيبتي إيمان عاصم إلى مصر، ليس فقط، بل وإنهاء إجراءات كثيرة منها التصاريح وحقوق أختي وزوجها المادية التي ستكون رصيداً لابنتهما نور.

البكاء والحزن في أوقات كثيرة رفاهية لا تتوفر لمثلي، ولكن القدر يترفق بنا ويكون دائماً بنا رحيماً، فلقد أرسل لي من يأخذ بيدي ويربت على قلبي، أصدقاء وجيران أختي بالسكن ..

تركت أمي بالعناية المركزة، وأسرعت بالذهاب مع السيدة نتالي وزوجها إلى سكن إيمان لأرى ابنتها وأطمئن عليها، كان استقبالهم لي كريماً .. رأيت ابنة أختي التي كانت تحت رعاية (بيبي سيتر) ترعاها وابن السيدة نتالي، نيقول، بمجرد رؤيتها أخذتها وضممتها إلى صدري وأخذت أتشممها وكأني أبحث عن رائحة إيمان فيها، شعرت بالدفء حين ضممتها إلى صدري، لأكتشف أنني التي كنت في حاجة إلى حضنها لأشعر بالأمان وليست هي، كم كانت ملاكاً، مبتسمة دائماً، داعبت وجهي وكأنها تمسح دمعة تصارع للخروج، وبمجرد لمستها لوجهي انطلقت هطولاً ..

يبدو أنها لاحظت الشبه بيني وبين أمها، فلم تكتشف الفارق وربما تكون رائحة الخالة من رائحة الأم سهل

ذلك التعارف بيننا والتحام نور بي، فلم أعاني طويلاً من تعودها على وجودي بدلا من إيمان .. حاولت السيدة "نتالي" أخذها من بين يدي، ولكني تشبثت بها فلن ينتزعها مني أي إنسان تحت أي مسمى، لن أتخلى عن إيمان ثانية، شعرت "نتالي" بإصراري وتمسكي بنور فتركتني ودعتني للاستراحة وتناول كوب من الشاي، حتى أتمكن من مواصلة رحلتي هنا.

موت إيمان كان كما الكابوس، انتظرت أن أفيق منه فأجدها أمامي عائدة من الجامعة تسأل عن طعام الغداء، فهي كما كانت تقول إنها ميتة من الجوع، ولكن الكابوس استمر حتى أقتات على أمي وعلي.

لطالما كانت إيمان خفيفة كالرؤية، سافرت وتركت لنا بضعاً منها، منحتنا مخلوقاً جديداً، مزيجاً منها ومن عاصم، إنها تجمع جيناتنا وجينات أبيها، فكانت تعويضاً من القدر لنا.

ومنحني القدر في خضم مذابح الموت التي أغرقتني، حتى كاد أن يسحبني تحت موجه لولا تشبثي بنور وتشبثها بحقها في، فسحة من العيش، الحلم الذي هطل من السماء ليتجسد حباً وألتقي به.

"عنان"، المحامي الذي عرفتنا عليه الأسرة اللبنانية جارة أختي، إنه ابن أخ ناتالي، شاب في بداية العقد الرابع، لبناني، وسيم، طويل، ذو شعر بني، وعينين خضراوين.. برونزي البشرة، لم ترتسم صورته في ذاكرتي كرجل وسيم بقدر ما أمسكت بيده الممدودة لي كطفلة تفتش عن الأمان والأسرة بعد تيه لفترة ليست بالقصيرة.

كان مصاحباً لي في كل خطوة أخطوها، لم يتخل عني ولو للحظة، في البداية كان الأمر بالنسبة له لا يتعدى وظيفته كمحام، لتتصاعد وتيرة الأحداث والمشاعر وأنتقل إلى خانة الصديقة ويشغل هو فكري ومساحة تتعاظم داخل قلبي..

لإطلالته صخب يزعج السلام داخلي، ولعينيه لمسات تمسح الحزن الذي علق بهما، وحضوره تشرق معه شمس غابت عن هذه البلدة لترتفع حرارة جسدي أعلى من حرارة بلد إستوائي ..

حملت نور واتجهت إلى المستشفى لأطمئن على أمي ولأريها حفيدتها، قد تكون حافزاً لها لتتشبث بالحياة ونعود ثلاثتنا إلى مصر، ليصفعني القدر من جديد!!

وكان نصيبي من اسمي "أنهم لا يروننـي"

-٩-

نمت لأول مرة في السرير وحدي، ولكن لم أشعر بالدفء، فالفراش بارد كما جسد ميت، نهضت لأشعل البوتوجاز ذا العين الواحدة حتى أدفئ الحجرة، وفتحت باب الثلاجة العرجاء، وقفت أمامها مبتسمة فلأول مرة كل ما بداخلها لي، لي وحدي .. أخرجت عدة قطع من اللحم والفاكهة وضعتها في طبق ثم أدرت التلفاز واتجهت إلى السرير، ألقيت البطانية على ساقي ووضعت الطبق فوقه وبدأت في التهام ما به ومشاهدة أحد الأفلام .. أين ذهب أبي؟ أين هرب هذا الرجل؟ ترى هل سيعود أم سيتركني وحدي؟ لا بأس فأنا أبغض وجوده ورائحته وذكورته.

لكن ماذا بعد أن ينفد ما بالثلاجة؟ ماذا سافعل؟ وماذا سيحدث إن عاد هذا الرجل الذي يلي اسمه اسمي في شهادة ميلادي؟ لا أتصور أن اواصل معه الحياة وقد فقد أحقيته في خوفي منه وهيبته.. وماذا إن لم يعد؟

رحت في النوم، وفجأة أجد يداً تهزني بعنف وغضب، أصحو لأرى أمي تقف جانبي وترفع في يديها سكيناً وكلها دماء وتمسك برقبتي وتنزل بالسكين لتذبحني.

إنه كابوس لم يعد يفارقني .. تصورت أنه برحيلها سأنفرد بالسرير والحجرة ورجلها، فإذا بي أبغض رائحته وزاهدة في سريرها، هي الآن تحارب اغتصابي لبيتها وقد كتبت نهايتها على يدي ويده لكي تظل في أثري تطاردني حتى الموت..

جاء النهار بطيئاً فإذا بهذا الصبي الذي تحرشت به أمامي، شعرت بشئ من الراحة، بالطبع لا أعرف لغة الإشارة ولكن حاولت التواصل معه بالإشارات مرة وبالكتابة على الورق مرات..

سألته : ما الذي جاء بك وهل معك أحد؟

أجاب: ليراني وأنه جاء بمفرده

لم يكن معنا أحد فانتهزتها فرصة لأجرب الحب مع من هو في سني .. فشل هذا الأبله، ربما لأنه ما زال طفلاً ولكني أقنعته برجولته، وبدأت في فتح طاقة لكي أغترف منها رزقي .. تعللت بأن أبي سافر هو وأمي وتركونني وحدي، وأن النقود نفدت مني وأحتاج إلى مصروف وخاصة أنه أصبح زوجي..

شعر بالصدمة في البداية، ولكنه حاول أن يثبت أنه أهلا للثقة، وأنه قادر على تحمل مسئوليتي، وأنه سيقوم بالتصرف..

ابتسمت، فلقد وجدت من سيوفر لي قوت يومي وربما ما هو أكثر، فقد بدا على أسرته حين رأيتها أول مرة أنهم ميسورو الحال وبدا عليه حاجته للاهتمام والحب.

انصرف على وعد أن يعود ومعه ما يساعدنا على المعيشة.

لم أعد أتحمل وجودي هنا بالمدفن، صار مخيفاً؛ فهناك زائرة الليل تقتحم هدوءه لتنتقم، ولكن لا مكان لي أذهب إليه .. وقفت أتلفت حولي وجسدي يرتعد، فالمقابر حولي ساكنة لا حركة ولا زوار ولا صوت إلا صوت بعض الكلاب وصراخ الرياح، إنه الشتاء بصحبة الموت.

دخلت الغرفة وأغلقت الباب ورائي، ووضعت حجراً كبيراً خلفه لعله يمنعها من الدخول، وأدرت التلفاز ورفعت صوته، لعله يشوش على صوت الهواء وضجيج صمت المدفن .. نعم فلصمت المقابر ضوضاء مخيفة تقتل إن لم يكن بصحبتك إنسان.

هكذا أنا كل ليلة أموت ببطء، فلم أعد أستطيع النوم، وهي تصر أن تقبض روحي لأرقد بجوارها ما تبقى لي من عمر .. هل كُتب على مثلي أن أعايش الموت طفلة وصبية وأن يغتالني حيّة؟

لن أسمح لهم أن يغتصبوا عمري .. لا لست أنا المذنبة، هي بغبائها قتلت نفسها، وهو الذكر الذي تحركه بطنه ونصفه الذكري أجهض حقي في المتعة والحياة .. أنا التي انتُهكت آدميتها واغتصب منها حقها في الطفولة بل ومستقبلها كامرأة.

مرت الليلة زحفاً كما امرأة تحتضر طويلاً وعمرها طال حتى يئست من دفنها، ثقيلة متشبثة بالحياة تغرس فيها أظافرها، هكذا كانت الليالي ثقيلة منذ سكنت أمي بيتي، مقبرتي وكأنها يوم، بل أيام الحساب، وعاد الصبح ومعه أمل جديد .. نظرت في المرآة لأجد سواداً أسفل عيني وشعرتين بيضاوين برأسي..

يا الله! هل شِخت وأنا ما زلت في باكورة شبابي؟!

أخرجت من الثلاجة ما تبقى من طعام وبقايا خبز وصببت لي كوباً من الشاي وجلست لأتناول فطوري، لكن لم أتمكن من ابتلاع الطعام، شئ ما يمنع الطعام من الدخول في جوفي، تجرعت بعض الماء لينزل بمعدتي كماء النار فأشعر بألم قاتل، تعكزت على الأرض ووضعت جسدي على السرير وحاولت أن أنام وكلي أمل أن تغادرني هذا النهار، فهي اعتادت زيارتي ليلاً، تأتي بصحبة الموت، موت الشمس، وتَلفُح الليل باللون

الأسود حداداً على الشمس، يتبادلا الحضور، يتناوبا اللعب بأعصابي .. أكيد سأتمكن من النوم نهاراً، سأغلبها وسأسهر الليل وأنام في النهار..

رحت في النوم لا أدري كم من الوقت لأفيق على طرقات على باب المدفن الحديدي، أنهض محاولة الوقوف فأشعر بدوار وغثيان، وصلت إلى الباب بعد مجهود لأجد " طارق"، الشاب الأخرس، هو طارق هكذا قال لي أو كتب لي اسمه على الورق، لم أتحمل الغثيان والإجهاد اللذين صاحبهما الإنفلونزا، لم أتذوق طعم النوم منذ أكثر من أسبوع .. سقطت ..

صحوت على صوته محاولاً الاطمئنان عليّ وقد ظهر على عينيه ووجهه القلق والرعب، نظرت إليه ونظرت إلى الطبلية التي تتوسط الغرفة لأجد فاكهة وخضروات وكيساً به لحم، نظرت لأسأله : من أين كل هذا؟

كتب لي أنه أخذ مصروف الدروس ولم يحضرها وأتى إلى هنا بعد شرائه خزين الثلاجة ..

كان طيباً حنوناً، صدق كونه زوجاً لي وقام بطهي اللحم وطعام الغداء لأجلي، وجلس بجواري ليطعمني وأسقاني كوباً من الليمون الساخن، شعرت بالأمان في وجوده وشكرته وطلبت منه أن يظل معي، لكنه اعتذر .. أشار

إلى أنفه وفهمت أنه يسأل عن رائحة كريهة تملأ المدفن، لقد مرت عدة أيام على موتها وتفتح جثمانها لتخنقني برائحتها، وتتغلغل بأوداجي، وكأنها تقتحمني فتنتشر بكل ذرة من كياني، كنت أحاول أن أسد أنفي وكأني أحاول أن أسد عنها منافذ اقتحامي، ولكنها أبداً لا تمل ولا تستسلم .. ستظل تحوطني وتعتقل الأكسجين أياماً حتى تتبخر أو تخنقني وأتبخر معها، كتمت إحساسي وأشرت له بأنها المقابر يسكنها الموتى .. طأطأ رأسه تعاطفاً معي وسألني كيف أتحمل الحياة بينهم؟

أجبته بأني أعتدت صحبتهم ورائحتهم . أستأذن في الإنصراف فيجب أن يعود قبل أن تقلق عليه أسرته.. تمسكت بملابسه ورجوته أن يبقى، فلقد كرهت الليل والمقابر وأريد لأحد أن يُخرجني من هنا، أن يصعد بي إلى الحياة فلم يعد الحوش يحبني بل لفظني، فأنا اغتصبته منها، أشعر بالغربة .. ما أقسى أن أغترب في مدفني! لم يفهمني ولم أجرؤ أن أحكي له .. انصرف وتركني معها.

لا تسأل "جائع "عن مرادف "الكرامة".

- ١٠ -

صاحب ابنة أخيه معه إلى حيث يعمل كحارس أمن بأحد البنوك بالمعادي..

كانت فتاة بالشهادة الإعدادية، جميلة، اعتبرها ابنته التي لم ينجبها، ويبدو أنه لن ينجبها، فظروفه المالية لا تسمح له حتى بتقديم شبكة للفتاة التي أحبها.

وجد في ابنة أخيه الصديقة والصحبة الطيبة، وأيضاً شيئاً من التباهي بها لجمالها الملائكي وظاهرها، الذي يوحي بأنها من طبقة راقية رغم بساطة مستوها وفقرها.

- ممكن تستخدمي النت هنا كما تريدين، المكان كله أنا المسؤول عن حمايته، الجميع هنا يعاملني باحترام وحب، ويستشيرني الجميع في مشاكلهم الاجتماعية حتى مدير البنك.

- أعرف يا عمو فأنت على درجة من الثقافة والوعي يفتقد إليه كثير ممن ارتادوا الجامعات.

- أية جامعات؟! أنا خبراتي وعقلي يفوق أي خريج جامعة، عندك مثلاً أجهزة الكمبيوتر هذه، إن حدث بها أي عطل أنا الذي أقوم بإصلاحها لهم، كذلك أي عطل

بالكهرباء، أي شئ .. أنا هنا روبوت يتقن سبع مهن لكن النصيب، حتى الليمون أنا أفضل من يقوم بصنعه وسأقوم الآن بعمل كوب كبير لك أتحدى أي أحد يصنعه كما أصنعه أنا.

- تسلم ياعمو

صنع كوبين من عصير الليمون بالنعناع، وجلس يتصفح إحدى المجلات، وبعد قليل أمسك بهاتف البنك ليحادث خطيبته، وجلست ابنة أخيه لمواصلة مذاكرتها جالسة على أحد الأنتريهات..

أدارت موسيقى على الكمبيوتر ووضعت (الهاند فري) بأذنها لتترك لعمها الحرية في محادثة خطيبته، التي كان لها عليها الكثير من المآخذ، فهي تتسم بالأنانية والطمع وتسلط الشخصية، حتى أنها ابتلعت شخصية عمها بداخلها فصارت المتحكم في كل قراراته وتُحركه كما الخادم، وعمها يكاد يكون مسلوب الإرادة لشدة حبه لها، فهي تصغره بخمسة عشر عاماً، وهو تجاوز الثلاثين من عمره، أما هي ففي الثامنة عشر من عمرها، وأدركت هي فارق السن وحبه لها فاستغلته لأقصى درجة.

أغلق الهاتف وهو في قمة الحزن والضيق، نزعت عن أذنها السماعات وسألته :

- ما الأمر ؟ هل ضايقتك ثانية؟

- لا .. هي لديها كل الحق فأنا وعدت أسرتها أنني سأكون مستعداً للزواج بعد عام، ومر الآن على خطوبتنا عامان ولم أنجز شيئاً

- عمو، هي لو بالفعل تكن لك حباً لتحملت معك وتبسطت في طلباتها، هل ستتزوجك أنت أم الشقة والموبيليا والذهب؟!

- هي صغيرة وتريد أن تفرح وتتباهى أمام صديقاتها وعائلتها بزوج تمكن من أن يلبي لها كل ما تحلم به

- أنت لا تمتلك مصباح علاء الدين، وهي يجب أن تقف معك لتحققا أنتما الاثنان أحلامكما، من الظلم أن يحلم طرف ويُحمل الطرف الآخر مسؤولية تحقيق أحلامه؟

وأحلامك أنت، أين هي ؟

- أنا أحلم ببيت وأن أنجب فتاة بجمالك وذكائك، هذه كل طموحاتي.

- أنت عظيم يا عمو، لكن خطيبتك أحلامها أوسع كثيراً.

واصلا الحديث والمناقشات حتى بزغ نور الصباح، حين وصل زميله الذي يتبادل معه (النوبتجية) .. سلمه المفاتيح وأخذ معه ابنة أخيه وعاد إلى البيت ليستريح ساعتين قبل أن ينزل ليستلم ورديته على الميكروباص.

"لا تأتي الكوارث فرادى"

-١١ -

النمسا

دخلت المستشفى متوجهة إلى غرفة العناية لأرى أمي وأريها "نور"، فلذة كبد إيمان، لأجد إحدى الممرضات تصحبني إلى الإدارة، وانتظرت إلى أن جاء أحد الأطباء وجلس بمكتبه متجهماً .. شعرت بضربات قلبي تنتفض، وعيني تتعلقان بوجهه لعل حدسي يخيب، لكن نعم، صدقت مخاوفي، لقد فارقتني أمي مع إيمان وأبي وتركوني وحدي، لم أشعر بيدي إلا وقد ارتخت لتسقط من بينهما "نور"، في تلك اللحظة يدخل عنان ويمسك بها وبي لأستسلم للإغماء، فغياب الوعي في تلك اللحظات رحمة.

أفقت لأجدني بإحدى، الغرف رفعت رأسي لأنظر حولي بحثاً عن طفلتي، نوري، لأجدها نائمة في مهد بجواري، وقف عنان أمامي ليطمئنني .. بكيت كما لم أبكِ من قبل؛ فلقد كتمت حزني وحبست دموعي خوفاً على أمي ولكنها راحت الآن .. غادرني الأحبة!

مال الحياة تحولت فجأة ؟! من يصدق أني هنا بالنمسا أدفن أسرتي؟ وهناك على يميني بالمهد كائن من الجنة ينتظر دنيا تخلو من الأهل، وخالتها أضعف من أن تتحمل كل ذلك ...

يا ربي، متى أعود إلى مصر وبيتي .. إلى حضن أمي وضحكة أختي ودفء نظرة أبي؟!

هل من الممكن أن أصحو لأجد أن كل ما أنا فيه كابوس وأجد نفسي في حضن أسرتي ؟!

لِم مصر بعيدة هكذا وكأنها انتقلت إلى القطب الشمالي أو أنا التي نُفيت إلى عالم الثلج؟

فهم عنان صرخاتي وحواري القاسي بيني وبين نفسي، احتضنني وتركت نفسي بين ذراعيه وبكيت.

بعد أربعة وعشرين ساعة رافقني عنان إلى بيت أختي بڤيينا، وكانت لحظة الدخول إلى بيتها قاسية، كما كل الأيام، فلم يعد هناك ما يستوجب الابتسام أو ما يستدعي الفرحة .. دعوته إلى الدخول ورجوته عدم الانصراف وجلسنا لنتشاور فيما سنفعل، كل ما قلته له هو أني أريد العودة سريعاً إلى مصر والانتهاء من إجراءات استلام الجثامين والعودة لدفنها بمصر..

قلت الكلمة وأنا أتمزق ألماً .. أجابني بأنه سيقوم بالإجراءات اللازمة سريعاً حتى أشعر بالراحة، لكنه اقترح أن نقوم بدفن أسرتي هنا بفيينا رحمة بي وبهم، فأنا وحدي وكيف سأتحمل تكاليف نقل الجثامين ودفنها بمصر، إنه أمر مرهق مادياً ونفسيا جداً، وأقنعني أن الأماكن لا تهم بعد الموت، فالأرواح تصير حرة وتعرف الطريق إلى أحبتها أينما كانوا.

اقتنعت أو ربما عجزت عن اتخاذ القرار، فبالفعل أشعر أني أغرق وفي حاجة إلى من يتحمل عني ويشاركني القرار والحزن .

استأذن عنان وكانت عيناه تقولان لي الكثير، وأنصت إليهما كما ورع في حضرة القرآن.

لم أنس كم كان حضنه دافئاً، شعرت فيه بالأمان، وكأن بصدره مصر وبيتي، ولكن لابد أن أفيق وأعود لرشدي فلا فرصة لما نما بداخلنا من أحاسيس.

لم أكن في حاجة إلى شرح ما بداخلي، فهو كان واعياً تماماً لكلماتي التي لم أنطقها وأكتفي بأن لمَس يدي وقبلها وانصرف.

أنا أتمزق

مرت الأيام ثقيلة وقاتلة، لولا وجود نور وعنان .. دارت أمامي حياتي وكأنها شريط لفيلم سينمائي لوقت كان كافياً أن أدرك أننا جئنا ليلعب كل منا دوره، وحين ينتهي ما كُتب له يخرج من الكادر، وهكذا انتهى دور أبي وأمي، وكانت إيمان وعاصم ضيوفاً في هذه المشاهد، ولكن ما دوري أنا ؟!

أرفض أن يحملوني دور البطولة، وأن أجيد كل هذه المراحل وحدي .. كل ما كنت أتصوره أني سأكون طالبة ثم خريجة متفوقة، ثم أسافر لأكمل دراستي وأعود لأعمل في الإعلام، لم أتصور، بل ولم أشغل نفسي حتى بأن أرسم صورة لفارس قصتي، ولم أفكر فيه طويلاً، بل كان يمر على تفكيري سريعاً، فمتعتي بين أسرتي وأصدقائي وانشغالي بأحلامي، ملؤوا حياتي بما يكفي.

الآن أنا أم دون أن ألحق ببداية القصة والتسلسل الطبيعي لها، كان من المفترض أن أحب فأعاني من شقوة الاشتياق، ثم أحارب لأجل حبي فأتزوج وأبني بيتي ركنة بعد ركنة مع من اختاره قلبي والقدر، وأمر

بمراحل الحمل بمعاناته الجميلة الراقية لأرزق بطفلة جميلة تشبهني وأبيها أو تشبه نور...

نور؟!

ولكن لماذا كل هذه المعاناة وقد اختصر القدر لي الحكاية وأهدانيها؟!

نعم أهداني نور بعد مخاض وحمل، ولكنه حمل ابتلائي بفقدان أحبتي، وخانة الحبيب ستظل شاغرة، ومعها قصص ستأتي لاحقاً لا أدري كيف ستكون أحداثها؟!

***

أسرة عاصم كانت أخته فقط، التي تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى كندا، فلا منازع لي ولا ند يحاربني في نور ولا في أحقيتي في حضانتها..

كنت أفكر في كل ذلك وأنا في طريقي للقاء عنان، أنزلني التاكسي بالقرب من كافيه "لاند مان" بشارع راقٍ، وكأنه لوحة خرجت من تحت أنامل "مايكل أنجلو"، غير أن قانون الأماكن وتذوق جمالها هو إسقاط لحالتنا النفسية، مزاجنا هو الذي يحيل قطعة خبز مغمسة بحبة ملح إلى مائدة من السماء، وأنا ارتبطت ثيينا في ذاكرتي بالموت ومشاهد البساتين والجنان، التي

تحيط بالمدينة كمقبرة راقية .. لم أكن على استعداد أن أراها كسائحة مشدوهة بأناقتها وجمال مبانيها ..

كان اللقاء لمناقشة آخر الإجراءات ظاهرياً، و هو في حقيقة الأمر لكتابة قصة جديدة يريد هو أن يكون بطلها والبطلة تعاند، لم تفارقني نور، كنت أتحرك بها أينما كانت وجهتي..

التقيت به، كان لطيفاً، عيناه تلقيان عشرات القصائد اختصرها بقبلة على ظاهر يدي .. جلست وأجلست نور على رجلي .. بعد أن غادر (الويتر) لاحظت نظراته التي غمرتني بالخجل ..

- نجوى! أنت فتاة من السماء.

(ملت برأسي خجلاً)

الله على حيائك، هل لاحظت نظرات من حولنا إليك؟

- أكيد .. أعتقد لأني محجبة، ربما يخافون مني فلربما أحمل في حقيبتي متفجرات. (وابتسمت)

- لا .. بل لأنك رائعة الجمال

- ميرسي عنان

- لا أقول ذلك لأسمع منك ميرسي

- ماذا أقول إذن؟!

- لماذا ترغبين في السفر إلى مصر ؟

- السؤال لا يجوز أن يصاغ هكذا؟ تقصد لماذا أريد العودة إلى مصر؟

- أوك.. لماذا ؟

- عنان ..هذا أمر طبيعي لابد أن أعود لوطني، لأهلي.

(صمتُ لأن الواقع يقول إنه لم يعد لي أحد في مصر، أهلي هنا في النمسا .. انتهت رحلتهم واختار لهم القدر هذه الأرض لتكون مثواهم).

- أعتذر أني آلمتك بهذا السؤال، لكن لابد أن نواجه الواقع، أنت تستطيعين مواصلة تعليمك هنا، فكارثة موت عاصم وأختك ستكون كارت حماية لك وامتيازاً لتحصلي على منحة استكمال تعليمك الجامعي، بل وستضمنين فرصة عمل جيدة ومستقبلاً أفضل لنور..

الحياة هنا عشرات الشباب يحلمون بها، فكري بعقلك ولم يعد لك أحد بمصر، نحن هنا أنا وأسرة "نتالي" عمتي، سنكون سنداً وأهلا لك، وإن تكلمت معك بلُغتكم، ربما كانت خطة القدر أن يأتي بك هنا لشئ لا نعلمه بعد، لكن الظاهر لنا أنه خير.

خير؟ منذ جاءت أختي هنا وأنا لا أسمع إلا سيرة الموت، أنا تنقبض روحي في أجواء هذا البلد، جاءوا

يحلمون ببناء حياتهم ليجدوا الموت في انتظارهم فبنيت لهم مقابر، حتى أمي جاءت لتدفن هنا.

- أولم تمنحك شيئاً جميلاً أيضاً .. نجوى؟

- آسفة عنان .. نعم بالطبع منحتني صديقاً لن أجد مثله يوماً

- صديق ؟ فقط ؟

- عنان، أنت إنسان مختلف، تعيش في مجتمع، بل عالم مختلف، ولابد أن أحترم ثقافتك وأرد عليك بنفس الوضوح والتلقائية .. أنا في فترة لا يجوز أن أحكم على مشاعري، فأنا أتخبط وفي حالة غرق وأي أحساس ما هو إلا شعور مشوش يحتاج إلى هواء نقي وجو صافٍ حتى أتمكن من الإجابة ووضع اسم لما بداخلي .. وهناك الكثير من الـ " لو" تسبق علاقتنا

- ماذا تقصدين؟

- أنت تعلم جيداً ما أقصد، لو وجملتها الشرطية لتستكمل بناء عملها، عنان هل زرت مصر؟

- لا

- رغم أنك عربي لكنك لا تعرف الكثير عنا وخاصة المصريين، لاحظت مثلاً أن أوروبا أرضها ومناخها

غير أرض ومناخ مصر، وهذا انعكس على شخصية أهلها، مثلا في بلدي اعتدنا الاستقرار، ربما بحكم أن أرضنا سهلة ووجود النيل، وأقصد بكلمة سهلة أنها منبسطة ليست مدرجات، ليست جبلية كما أغلب أوروبا، وهذا أتاح لنا السلام وعدم التنقل المستمر مما أثر على مزاجنا وشخصيتنا بل وحياتنا التي يتهمها الكثيرون بأنها حياة رتيبة مملة، ولكن بالنسبة لنا كل ما نحلم به هو السلام والأمان، الاستقرار.

- إللام تلمحين؟

- ألمح إلى أني لا أحب خوض مواجهات ومعارك وحروب لا قِبل لي بها، أجد ذلك بعيداً عن شخصيتي خاصة الآن، لقد اعتدت الهدوء، لا تستهويني القفزات لأعلى في خط حياتي التي اعتدت أن تسير في اتجاه واحد مستقيم .. المغامرة لها أهلها وأنا لست أهلاً لها.

- أحترم طبعا اختلافك وظروفك التي تحتاج إلى بطلة لكي تجتازها، وتمنيت أن أشاركك هذه البطولة وأن أناصفك همومك.

- أنت بالفعل شاركتني بل تحملت بدلاً عني الكثير..

عنان، أنت رجل تربى في بلد أوروبي لا يحب التورية ولاتستوعب ما نتصف به من خجل وتجمل ومماطلة،

أستطيع أن أكون صريحة وأقول لك إنك تروق لي ولا أستطيع أن أنكر أنه لولا وجودك جانبي لا أدري ماذا كان سيكون شكل حياتي أنا ونور.

- أنا محامٍ وهذا دوري، لكن أنا أتحدث عن شئ ما يربطني بك ولا أنفك أغرق به، أنت لا تغادرين مخيلتي ببراءة وجهك ونظرة عينيك الغازية لكل حصوني .. هل لديك تفسير؟ نجوى! الحياة هنا كما قلت عملية وغير ثابتة والعلاقات سريعة وغير دافئة في كثير من الأوقات، ولكن حضورك أدخلني في عالم كنت أهاجمه، عالم الشرق، فإذا بك تحملينني على بساط إلى غموضه وسحره، أسرني خجلك، وغطاء رأسك، وحرارة مشاعرك، والترابط الجميل بأسرتك، تمكنت أن تغيري من نظرتي إلى المرأة الشرقية، أجبرتيني على احترامك وحبك .. أريد أن أقيم بيتي وأسرتي معك .. أريد أن أقف أمام المرآة ألمس شعراتي البيضاء وأنت خلفي وأنا في حضنك .أتكلم العربية وأسمعها، أغنيها معك، الجميلات هنا كثر، ولكن لن يفهموا جملة "باحبك موت" كما نشعر بها نحن، رأيتني وأنا أستمع معك إلى صوت نجاة وفيروز ونحن جلوس سوياً في شرفتنا .. لقد رسمت مستقبلي وحياتي كلها معك، بل وشعرت

بها، بل وحددت أسماء أولادنا .. هل تفهمين؟ نعم .. أحبك ..

(كررها ثلاث مرات) وكأنه في صلاة.

الكلمة نزلت على أذني وأحدثت دوياً بداخلي، أحسست وكأن العالم المحيط بي سمع صداه، نظرت إلى عينيه وبلا إرادة وجدتني أرفع نور وأطلب منه الانصراف، أمسك بي وبنور وأجلسني مكاني فإذا بدموعي تنفجر رغماً عني..

- حبيبتي..

جلست وسكت حتى تهدأ دموعي، فإذا بنور تبكي وكأنها تشاركني ألمي وفرحتي، فلقد اعتدت منها الضحك حين تلمح ابتسامتي، وها هي أحست بألمي فبكت معي.

كم إن القدر حان، في وسط كل تلك الجلبة وفوضى الكوارث والمصائب التي تحوطني، يرسل لي عنان ونور، يشعران بي، يتألمان لألمي ويبتسمان حين أبتسم. ارتشفت قطرات من كوب الماء ورفعت رأسي وأنصتُّ إلى صمته ونظراته، وكان لابد من أن تكون هناك إجابة وتفاعل ما مع اعترافه.

- ماذا؟ نجوى!

- عنان!هل جربت إحساس الغريق؟ عندما تكون على وشك الغرق في وسط المحيط وتتنفس آخر ذرات هواء وتستسلم للموت، وفجأة تجد يداً تسحبك إلى البر وتلقي بالدفء على جسدك المبلل بالموت والثلج؟ اليد هذه هي أنت، أحبك نعم لا أستطيع أن أكذب قلبي أو أن أنطق إلا بما أشعر به.

رفع رأسه واستند إلى الكرسي وابتسم وقال : لولا شرقيتك والتزامك لصرخت بحبك وجعلت من ڤيينا جمهورك وجمهوري..

(ابتسمت في خجل) وسألته : ممكن توصلني للبيت؟

- حاضر بالطبع هل تقصدين قلبي؟ فقلبي هو بيتك (وابتسم)

- عنان أوصلني إلى البيت ..

(وظهرت بسمة تتحلى بالحزن والحياء، فكيف لها أن تزور وجهها في مثل هذه الظروف؟!)

"حين نجوع إلى الطعام وإلى الجنس،

فلن ترى إلا همجيين"

بعد أن انتهى من صلاة الجمعة صعد إلى بيته ليرتدي ملابسه متوجهاً لزيارة خطيبته، التي يتلهف إلى رؤيتها، اشترى كيلو من المانجو وكيلو من الخوخ وذهب لزيارتها..

رن جرس الباب، فتحت له حماته، سيدة قصيرة ممتلئة الجسد في آواخر الأربعين، تضع خماراً بنياً على رأسها، فلقد انتهت منذ دقائق من صلاة الظهر، ترتدي قميصاً من (الچيل) يلتصق بجسدها، مما جعله يهتز وكأنها تؤدي وصلة رقص شرقي مع ارتدائها الخمار مما أضفى عليها شكلاً هزلياً يدعو إلى الضحك

- اتفضل تعالى يا ابني ادخل

(تنادي على ابنتها) : منار، تعالي خطيبك وصل

دخلت فتاة جميلة، خمرية اللون، ذات شعر أسود طويل، ممتلئة الجسد، في جمال ملامحها مصرية بلا أي لمسة أجنبية وكأنها بعثت من تابوت من أحد المتاحف الفرعونية.

حيته وسلمت عليه وفي دلال سألته: أهلا بك، كيف حالك؟

- أنا بخير .. أفتقدك يا ست البنات

- شكراً

- شكراً؟ أنا حزين

- لماذا؟ (سألته في تهكم)

- أقول لك لك أفتقدك وأنت باردة في ردودك عليّ!

- أنصِت لي جيداً، كلام الأفلام والكلام الناعم هذا لا حاجة لي به، أنا وماما وجدنا شقة في البساتين، جميلة وواسعة وكاملة التشطيب، لوكس، وفي عمارة جديدة

- تمليك ؟

- طبعا، ألا تدري بما يحدث في هذه الأيام؟ ألا تشعر بصعوبة الحياة؟ هل تعتقد أن هناك شققاً للإيجار هذه الأيام؟

- يا بنتي نبحث عن شقة إيجار مؤقت وإن شاء الله حينما تتحسن حالتي المادية، وربنا يفرجها علي سوف أشتري لك التمليك.

- مؤقت؟ بعد كل هذا الصبر تريدني أن أسكن في شقة إيجار مؤقت وننقل الموبيليا كل سنة ؟!

اسمعني جيداً ولن أكرر كلامي، ضع ذلك كما القرط في أذنك يا حبيبي، إن لم تتمكن من توفير حق الشقة فليذهب كل منا في طريق وليغني الله كلاً من سعته.

وقفت وتوجهت إلى غرفتها وتركته جالساً في حزن، حتى دخلت أمها تعتذر له عن حمق ابنتها وطمعها :

- لاعليك بني، البنت اغترت بجمالها وشبابها، لكن هي عندها حق، موضوع الشقة المؤقتة هذا لا يصلح للاستقرار، وبعد عدة شهور سترزقان بالأبناء وليس من المعقول أن تتنقلوا كل سنة من مكان لآخر وتنقل العيال من مدرسة إلى أخرى .. لو تقدر تاخد الشقة التي حدثتك عنها حتى لو تستلف من أحد وندفع المقدم ونقسط الباقي؟

تسكت الأم لبرهة ثم تقول: هناك حل آخر، سأقرضك المقدم، معي أساوري الذهبية، سأبيعها وأقرضك المبلغ، ادفع المقدم ولما ربنا يكرمك اشتري لي ما بعته من الذهب وتولى أنت الأقساط .

- الله يبارك لك يا حماتي، أنا أتساءل لم ابنتك لم تكن مثلك؟!

- يا ابني بنات هذا الزمن مختلفات، هي بنت جيلها .. ربنا يرحمنا، أبوها دللها، وهأنذا أدفع ثمن تدليله لها، لا أحد قادر عليها

- أنا اقدر يا حماتي لكن أنا فقط أخاف على زعلكم.

"نظرت إليه نظرة شفقة وسخرية، فهي تعلم جيداً أنه أضعف من أن يرفع صوته أمامها"

- ربنا يهديها يا ابني، أنت ابن حلال وزوج أي بنت تتمناه.

استأذن في الانصراف وخرج على وعده معها أن يلتقيا بالغد للذهاب لحجز الشقة.

اتجه إلى المقهى ليلتقي بأصحابه، فاليوم الجمعة إجازته من البنك والميكروباص، كان أمله أن يقضي اليوم مع خطيبته، يستمع إلى كلمات الحب منها ويقتنص منها قبلة، لقد تجاوز الثلاثين وجسده يئن شوقاً للحب ولملامسة أنثى، يقتله الاحتياج وحلم ليلة الزفاف لا يفارق ذهنه، يرى في منار الفرصة الأخيرة ليتذوق الحب الحلال والجنس تحت رضاء المجتمع، وينضم إلى الرجال أصحاب البيت والأسرة .. يحسد هؤلاء الذين يجلسون على المقهى ثم يستأذن أحدهم للعودة إلى البيت والأبناء .. إنها الجنة، الإحساس بدفء الزوجة التي يشاركها السرير، وأن يسمع كلمة بابا وما تحملها من دلائل الخلود والمسئولية الجميلة، إلا أن منار دوماً تصدمه وتصم رغباته بماديتها المتطرفة ..

جلس بعد أن طلب كوباً من الشاي باللبن، وجاء أحد أصدقائه الذي حياه ثم سأله عن سبب تجهمه ..

رد : إن الراتب الذي يحصل عليه من عمله كرجل أمن لا يكفي، وهو في حاجة للعمل بمكان آخر وإلا سيفقد خطيبته.

أشار عليه صديقه أن يتحدث مع شركة "الكير سرفيس"، التي يعمل بها، أن تنقله ليعمل كرجل أمن بإحدى العمارات الراقية بالمعادي الجديدة، حيث الراتب أعلى بالإضافة إلى ما سيحصل عليه من هبات وهدايا من السكان، الذين وبلاشك سيكونون من طبقات اجتماعية ومكانة عالية، إن لم يستفد منهم مادياً لا بد أنه سيستفيد من علاقاتهم، فإما المال أو السلطة كلاهما كارت يتيح لك التسلل ليلمس الشمس والهواء على سطح المجتمع بعد أن كان غارقاً تحت سطح الحياة وفتح كل الأبواب المغلقة.

صمت للحظات واقتنع بالفكرة، وقرر أن يتوجه بعد أن ينتهي من (النوبتجية) إلى مدير الشركة ليطلب منه نقله للعمل بإحدى العمارات التابعة لشركتهم .

-١٢ -

" آنية باندورا"

تقول الأسطورة اليونانية إنه كانت هناك جرة منحها (زيوس) لـ (باندورا)، وكانت تحتوي بداخلها على كل أصناف الشر، وبدافع الفضول منها فتحت الجرة فانطلق منها كل الشر وانتشر ليعم الأرض، ولما سارعت إلى غلق الآنية كان جميع ما حوته قد تحرر إلا شيئاً واحداً ظل في قعرها، وهو "روح الأمل."

***

جاءت سميرة وبصحبتها سارة وأمجد ابناها، هما توأمان، سميرة هي صديقتي منذ الطفولة، أنهينا معاً الابتدائية والإعدادية ثم الثانوية بنفس المدرسة، وهي مدرسة تجريبية بالمعادي، وتفرقنا بالجامعة، حيث التحقت هي بكلية التجارة والتحقت أنا بكلية الألسن، وتزوجت وهي بالصف الأول بابن عمها، مهندس، وأنجبت توأميها سارة وأمجد في السنة الثانية من الزواج، وتعثرت أنا لظروف وفاة أختي وأمي في السنه الثالثة، فتم تأجيل الدراسة عامين حتى استقرت الأمور

معي ومع نور، والفارق بين نور والتوأمين أعتقد لا يتعدى أشهراً..

رحبت بهم، ودخلت سارة وأمجد مع نور إلى غرفتها، وبصحبتهم الكيكة ومشروباتهم وانفردت أنا بسميرة صديقة العمر وما تبقى لي من أهلي ..

أخذنا فنجاني القهوة وجلسنا في غرفة المعيشة نستمع إلى موسيقى هادئة ونتحدث..

***

- سارة! ما رأيك في مقتطفات الشعر التي أنشرها على صفحتي؟

- جميلة رغم أني أغلب الوقت لا أفهم المغزى من كلماتك لكنها تروق لي، نور كوني صريحة وقولي لي إلى مَن تكتبين كل تلك القصائد؟

- هل يجب أن يكون الشعر في رجل ؟! إنها مشاعر ألقي بها إلى الورق، قد تكون حديثاً إلى الكون، إلى السماء، أو ماما

- فعلا نونا تستحق..

- نونا روحي لكني أتحدث عن ماما إيمان.

وتسرب الحزن إلى وجه نور كما وأنه غيمة كست وجهها بالاحمرار والدموع

- كثيراً ما أستحضر روحها وأتحدث إليها، وكثيراً ما أعتصر من الخيال رائحتها وأغمض عيني لأرتمي في حضنها، ولكن أراها وكأنها في الظل فلا ملامح لها بذاكرتي، ولقد أخفت نونا كل صورها وكلما سألتها عن شكلها تجيب بقولها: "انظري إلى وجهي سترين ماما".

(وبكت فاحتضنتها سارة)

توقفي عن النكد وقولي لي : ما دور مازن في القصة أليس هو your boy friend ؟

مررت أناملها لتمسح دموعها التي ترددت في الهطول وقالت: اخفضي صوتك أمجد أنهى المكالمة وسيدخل الآن من البلكونة ..أنت تختلقين قصة من لا شئ سارة أنا عالمي كله نساء كأني في جزيرة لا يقطنها إلا السيدات، وقعت في حمام ملئ بنون النسوة، ومازن الولد الوحيد الذي أتحدث معه، يراودني الفضول أن أكتشف عالمهم، نونا عندها " فوبيا"من االجنس الآخر.

ضحكت سارة ثم انضم أمجد لنا وسأل: عِم تضحكان ؟ شاركاني

- نور تقول إنها وقعت في حمام كله نون نسوة

(ورنت ضحكتها الناعمة كما هديل الحمائم)

- عندها حق، نونا فعلاً تبالغ في حماية نور كثيراً ، تخاف زيادة عن اللزوم عليها مع أنها رجل لا يخشى عليها ..

ألقى جملته وأخذ يجري حول السرير وإلى البلكونة، ونور تجري وراءه وهما يتضاحكان.

***

- الشتاء هذا العام قاس جدا يا سميرة .. تغيرات المناخ صارت متطرفة

- بالمقارنة بمناخ أوروبا أعتقد أننا في رحمة يا نونا

كلمات سميرة أخذتني وحلقت بي إلى النمسا ورائحة جوها، صاحبتها رائحة عطر عنان، وكانت عيناه تطاردانني لا تفارق عالمي، كانت الرفيق الثالث لي ونور رغم مرور حزمة سنوات.

- فيم تسرحين نونا؟

- لا شئ سميرة .. لاشئ .. دعينا هنا، ما الأمر؟ ألاحظ أن عينيك تمتلئان بالحكايات وهناك أمر ما يؤرقك..

- نعم نونا.. أشعر أن حياتي بلا معنى ولا هدف، مملة رتيبة

- هل يعقل هذا؟ أنت زوجة وموظفة ناجحة .. إن كانت حياتك رتيبة فمن إذن المستمتع بحياته؟!

- اكتشفت أني لا أستمتع ولا أحزن، كل المشاعرعندي سواء، أتصور أني بليدة الإحساس،حتى الألوان، تخيفني الألوان المبهجة، أشعر بالراحة في الرماديات والبنيات وكأنني ألتصق بالتراب، أدوات التبرج كساها التراب على تسريحتي، نسيت أني امرأة، تزوجت بشكل تقليدي بلا حب، وأنجبت وتحولت فجأة إلى طباخة وخادمة في

بيتي وعملي الممل، إنها نفس الشوارع التي أسير فيها كل يوم ونفس الروتين حتى تكاد الوجوه تتشابه، مللت الشوارع وملّتني هي أيضاً .

تذكرت حوارك مع عنان والاختلاف بين حياتنا الرتيبة وحياتهم التي تحمل كل معاني الحياة، نحن متناقضون يا نونا، دائماً ما ندعي أننا حماة الفضيلة، وقيم نتشدق بها وكلنا تناقض، ما نؤمن به نخالفه عند التطبيق والتعامل، فنحن نتشدق بالحديث عن الترابط الأسري والدفء والمشاعر الساخنة، ونحن نتعامل بقسوة مع بعضنا البعض .. اكتشفت أنني غير راضية عن عملي ونظرتي المتجهمة دوماً مع العملاء وقسوة بعض زملائي مع الناس، أنا غير راضية عن عملي، بل حياتي، حتى علاقتي بزوجي لا إثارة فيها .. بلاروح، كم تمنيت أن يصحبني إلى السينما أونسير على الكورنيش ونتناول كوز ذرة أو ترمس ويشتري لي وردة .. تمنيت أن نتخاصم ويحاول مصالحتي بأغنية رومانسية أو رسالة ندم واشتياق .. كل ما بيننا هو مصروف البيت ومدرسة الأولاد، الكلام بيننا نادر، شككت كثيراً أنه متزوج أو أنه في حالة حب مع أخرى ولكن لم أحاول أن أكتشف إن كانت هواجسي حقيقية أم أوهام..

- لماذا لم تحاولي أن تعرفي ؟

- ربما عملاً بالآية التي تقول "لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم"، هذه الآية التي لطالما تكررها أمي .. دائماً ما كانت تقول: من الغباء البحث عما يخفيه عنا القدر، من الأفضل الاستمتاع بالحياة كما تبدو لنا، ربما لو علمنا ما يخبئه لنا القدر لانقلبت حياتنا رأساً على عقب.

كانت نصيحة أمي: حتى لو تأكدت الزوجة من خيانة أو زواج زوجها من أخرى فمن الأفضل أن تتظاهر بعدم علمها.

- لماذا؟

- إن ادعت أنها لا تعلم بزواجه فسوف يحاول دائماً الحفاظ على سرية زواجه ومراعاة مشاعرها، وستظل هناك فرصة لإعادته بعد أن تعدل الزوجة من نفسها، ومتعة أن يتحرك وأنت تتابعينه وخيوط الأمر كلها بيدك دون علمه، أتدرين يا نونا؟ أنا تمنيت أن يكون زوجي متزوجاً بأخرى

- لماذا؟

- لأجل متعة المنافسة والصراع، تحريك المياه الراكدة، هناك نشوة ما تشعر بها الزوجة حين تتخيل زوجها في

حضن أخرى تثير بداخلها "أورجازم" من نوع مختلف.
(قالت الجملة وهي ترن ضحكة وعيناها لسقف الغرفة وكأنها تبعث بها لشخص ما كيداً)

ضحكت وجاريتها في الحوار ..

- سوسو! نعيش حياتنا كلها كأنما نسير على حبل، في اهتزاز دائم والذي ينجح هو من تمكن من الحفاظ على اتزانه وعدم السقوط، أو الميل كل الميل، يميناً أو يساراً.. لا بأس أن نرتكب حماقة لكن ما يميز الإنسان العاقل هو تصحيح مساره دائماً وعدم الانجراف في الحماقة، فالحياة رحلة قصيرة جداً لابد أن نستمتع بها ونترك ذكرى طيبة فهي التي تبقى، مشكلتنا أننا نتحدث كثيراً ونشتكي كثيراً ولا نحاول أن نجد حلولاً لشكوانا أو الاستماع إلى الطرف الآخر، مواجهة النفس أولى الخطوات لإيجاد الحل، فلا شك أن التشخيص السليم لأمراض مجتمعنا هي بداية لإيجاد العلاج المناسب

- ماذا تقصدين يا نونا؟

- أقصد أن الملل، والخرس الزوجي، وعدم الإحساس بالسعادة بعد مرور عدة سنوات من الزواج، سببها أننا لا نفتش داخل أنفسنا عن السبب، بل نجد السلوى في إحساسنا بأننا ضحايا، ضحايا الفقر والقوانين الظالمة بل

وضحايا العطاء المجحف، الإنكار لأحقيتنا في الأخذ والمتعة..

- تقصدين أن العيب في أنا أم في كل الزوجات يا نونا؟

- أنا لا ألقي باللوم عليك أنت خاصة، بل المرأة المصرية عموماً، أغلب المشاكل تكمن فيها، فهي الأم والزوجة والحماة والأخت.

- والرجل برئ يا نونا ؟! نعتبره مثلاً غير مسئول عن أخطائه، محتاج أن يكون تحت الوصاية مثلا؟

- أضحكتني يا سوسو، لنكن واضحين، الأم تُفرخ لنا زوجات وأزواجا معاقين، فهي تربي ابنتها على عدم تحمل المسئولية، وتربي ابنها على الاتكاليه فيظل في حاجة إلى مشورة أهله وحل مشكلاته حتى سن الأربعين، وهو نفس السن بل يكون الرجل أصغر ويتولى مسئولية إدارة مؤسسة، بل بلد بالكامل في الغرب، كرئيس فرنسا مثلا، أما هنا يظل الرجل في حضن أبيه وأمه حتى يشيب، كذلك البنت تشب على التطلع وتحلم بمن يأتي لها بالشقة السوبر لوكس والسيارة (الفول أوبشن)، وتحمل أهلها ما لا يطيقون لتجهيزها وبعد ذلك تهدم بيتها بسهولة، رغم أن جمال الحياة ومتعتها في أن نبنيها نحن لبنة لبنة، ما المتعة في

أن أدخل بيتاً مكتملا ؟ كل ما يشغلنا هو المظاهر .. كل ما يهمنا رأي الناس وإرضاءهم رغم أن رضاهم غاية لا تُدرك، وبعد الخطأ الأساسي في التربية ننتقل إلى كارثة فشلها في إدارة بيتها والتعامل مع زوجها والمشاكل الطبيعية بين كائنين خرجا من بيئتين مختلفتين، الكثيرون فشلوا في كيفية الاستمتاع بالحياة، فنحن في حالة اتهام دائم وفي محاولة دائمة لنفي تلك الإتهامات، واقعون تحت سيطرة حكم الآخر ونظرة المجتمع التي تقتل حريتنا .. بعد الزواج نترقب الإنجاب ولا نمنح أنفسنا الفرصة في الاستقرار وأن يستمتع الزوج والزوجه بارتباطهما، بل نتعجل الإنجاب حتى نهرب من تهمة العقم، وبعدها نترقب جنسية المولود، ولد أم بنت، خوفاً من تهمة أن الزوجة لا تنجب إلا البنات أو تهمة أنها تنجب البنات، ففي كل الحالات نحن متهمون وتحت المراقبة والآخر منشغل بنا، فنظل متهمين في حالة إثبات براءتنا، فيضيع الحب وتتسرب السعادة من البيت، وإن وهبنا الله الولد والبنت يتهم كل منا الآخر بالتقصير والظلم، لأن التطلعات تتنامى بشكل غير عاقل وغير منطقي، نتعجل كل شئ لننتقل إلى حمق آخر ألا وهو أن المرأة المصرية تتنازل عن دورها كزوجة وحبيبة وتتحول إلى أم وتُقصي زوجها

في أحد الأركان مما يصيبه بالإحباط ليبحث عن الحب والاهتمام عند أخرى..

لننتقل إلى الأهم، وهو جريمتها في حق نفسها، إنها تهمل حقها وحلمها في تحقيق ذاتها وتحاول أن تضفي على دورها كخادمة "السوبروومنية"

ضحكت سميرة : ما معنى " السوبر وومنية"؟

- تعبير اخترعته أصف به تضخيم المرأة المصرية وتعظيمها لدورها كخادمة حتى تبرئ نفسها من فشلها في تحقيق ذاتها، رغم أن ما تقوم به تقوم بمثله المرأة الغربية، ورغم ذلك فهي ناجحة في عملها وحياتها الخاصة وكأم أيضاً.

- هل تقنعينني بأن المرأة الغربية تتعب كما تتعب المرأة المصرية ؟ا

- لا.. أعرف أن المصرية تعبها مضاعف لأن هناك جزءا كبيرا يقع على عاتق التعليم والحكومات والظروف الاقتصادية، وهذا ليس بأيدينا، نحن نحتاج إلى ثورة علمية وتربوية وثقافية، انظري لعلاقتي بنور نور متفوقة في دراستها ورغم ذلك تشاركني في كل شئ داخل البيت والمطبخ .. نحن نعاني يا سميرة من الرتابة والملل والتكرارية التي تقتل الحب بين

الزوجين، التكرارية والرتابة عدو للإنسان، نحن خلقنا للحركة والتجديد والتمتع بالحياة .. الدورة الدموية في حالة حركة وثباتها معناه الموت وتجمد الدم في العروق، وكذلك الكون خلق في حالة حركة دائمة ومتواصلة والجمود معناه نهاية الحياة، ما بالك أن تستمر الزيجة ونفس العلاقة مع نفس الأفراد سنوات طويلة .. أكيد فيه حل ..

- أنا أقترح أن يكون عقد الزواج محدد المدة، وإن تفاهم الزوجان يجدد العقد وإن حدث ملل أو عدم تفاهم يفسخ العقد كما يحدث في عقود إيجارات الشقق.

(وأطلقت ضحكتها التي تعج بالأنوثة)

- اخفضي صوتك يا سوسو الأولاد بالداخل سيظنون أننا نشاهد فيلم (بورنو) لا نريد فضائح .. لي رأي آخر لكسر الرتابة الزوجية والخرس الزوجي، وهو التغيير والحركة كما قلت أنت ولكن التغيير الإيجابي

- كيف يا إعلاميتنا ؟

- لابد أن تحب المرأة نفسها أولاً وألا تغرق نفسها في خدعة التضحية لأجل البيت والأولاد، لا تنسى حقها في تحقيق ذاتها، يجب أن تفتش عن حلم لها.

- حلم أي أم أن تنجح في أن تصل بأبنائها إلى بر الأمان

- هذا ليس حلمها بل إنها الغريزة، ليس فضلاً منها المنح والتضحية لأجل أبنائها بل الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان، أباً كان أو أماً، لابد أن يكون للمرأة استقلالية الحلم ونجاح يخصها هي باسمها هي ليس بصفتها أم أحمد أو أم هالة مثلاً .. ويجب أن نتعامل مع الإجازة الأسبوعية بشئ من الاحترام، ونمنحها أهمية كما العمل، تكون إجازة نهاية الأسبوع في نفس أهمية الواجبات والفروض، يجب أن يكون هناك بند آخر في ميزانية البيت، وهو الإجازة، هنا ستسترد المرأة حقها وحريتها، تُمتع وتستمتع، لكن الواقع أننا ننسى أنفسنا كنساء ولا يظهر على السطح إلا كوننا أمهات فقط .

- وأنت يا نونا، هل تتذكرين كونك أنثى ولست أماً فقط؟

- سميرة، أنا وضعي مختلف، أنا لم أقابل حتى الآن من يستحق أن أشاركه قلبي أو يناصف نور في حبي

- قولي أنك غير قادرة على نسيانه

- لن أكذب عليك وأدعي أن قولك غير حقيقي .. فعلا لم أجد من ينسيني هذا الحب.

- أما زلت تعاندين ولا تردين على رسائله؟

- أحياناً أرد وكثيراً أهرب

- والحل؟

لا إجابة أو حلول عندي، كل ما أعرفه هو ما حدث بالأمس، أما المستقبل فغائم يختفي خلف سحابة لا تنقشع وكلما سألت عن مغزى لقائي به أجد إجابة واحدة، لقد كان رفيق رحلة سفر هوّن علي المسافات وأعباء الرحلة وأعتقد أنني كنت له كذلك، ما أعيشه مجرد ذكريات ربما تزول يوماً ..

- وماذا عن جاركم بسكنكم بصقر قريش ؟ ذلك الشاب الوسيم الأنيق على حد علمي أنه كان معيداً بكلية الألسن

- تقصدين أحمد؟

- نعم هو.

- أحمد كان مهرباً وملجأ حاولت أن أهرب إليه لعلني أنسى حبي له، لكن ضميري لم يغفر لي وكذلك هو، أنا بالفعل كنت اعتدت وجوده وخفة ظله، ساعدني وجوده كثيراً على الانغماس في الحياة والتأقلم، إلى أن حدثت تلك الصدفة الغريبة، حين كنت معه في نادي المعادي تركت هاتفي المحمول ناسية وذهبت إلى التواليت لأهندم ملابسي وأضبط ماكياجي، فإذا برسالة صوتية من عنان على (الواتس آب) وأنا كنت قد أبطلت كلمة

المرور لأن الهاتف لابد أن يكون جاهزاً دائماً لأرد على مكالمات المحطة، قام بتشغيل الرسالة واستمع إليها وعلم بقصتي معه، عدت لأجده في حالة عصبية وغضب وسألني عن حياتي بالنمسا وماذا سأفعل بنور إن تزوجنا، تعجبت لسؤاله فكنت معتقدة أنه يعلم أنني ونور كما الباقة الواحدة، من سيطلبني لابد أن يسلم بوجود نور معي، ثم سألني بشكل مباشر: مَن عنان؟ حاولت - وأنا والله لم أكن وقتها كاذبة أو أدعي - ألا أتذكر عن عنان إلا أنه المحامي الذي أنهى الإجراءات القانونية اللازمة لعودتي إلى مصر، فسر كلامي على أني أكذب عليه، لم يرق لي اتهامه وكأنني كنت أتصيد خطأ له، فرددته ومنعته من مواصلة اتهامه وأنهيت علاقتي به، ويبدو أنه لم يكن صادقاً في حبه لي أو ربما أدرك أن زواجه مني، ومعي نور، أمر لن يكون ناجحاً أو مستحباً أمام المجتمع وانتهى الأمر .. أعتقد لو كانت قصة صادقة لما انتهت بهذه السهولة.

- معك حق، ألهذا غادرتِ منطقة صقر قريش إلى هنا؟!

- أحد الأسباب لا شك، لكن أضيفي إلى ذلك أنني اعتدت الحياة الهادئة التي عشتها بالمعادي الراقية، معادي الزمن الجميل، فدائما ما أحاول أن أفتش عن تلك الأجواء القديمة وأهرب إليها، فراق لي الجو هنا .

فجأة رن جرس الباب، نهضت لفتحه فإذا بسيدة في العقد الثالث، جميلة، ملامحها ذكرتني بممثلة ما، ترتدي كثيراً من الحلي الذهبية وعباءة سوداء .

- مساء الخير، آسفة إن كنت قد جئت في وقت متأخر دون استئذان.

- مساء النور .. لا أبداً .. خير؟

- أنا جارة حضرتك في شقة ثلاثين

- أهلا وسهلا .. تفضلي .

(دعوتها للدخول وقدمت إليها سميرة، التي رحبت بها وجلسنا ثلاثتنا)

- قاطعت كلامكم؟ أنا آسفة

سميرة : لا أبداً .. أهلاً بحضرتك.

- أنا هناء جارة الأستاذة .. أتابع برامجها وأحب جدا أن أتابعها

- ميرسي .. أشكرك

- إنها الحقيقة أنا لا أجامل .. أنا جئت قبل عدة أيام وفتحت لي الجميلة الصغيرة.

- فعلا قالت لي، لكن الغريبة لما سألت الأمن ووصفتك نور لهم أنكروا أنك هنا بالعمارة

- الحقيقة هم لا يعرفونني لأن خروجي نادر، ورجال الأمن تولوا أمن العمارة منذ عدة أيام .

- أي خدمة أقدر أقدمها لحضرتك؟

تلجلجت وسكتت لبرهة وهي تنظر إلى سميرة وكأنها مترددة في الكلام بحضورها ثم أردفت : سوف آتي لحضرتك في وقت آخر تكونين فاضية ..

استأذنت سميرة لتتركنا معاً ودخلت البلكونة ومعها فنجان قهوتها

- أنا عندي شركة استثمارية وعقارية، كنت أفكر أن أعمل لها إعلاناً بقناة حضرتك

- سهل طبعا، ممكن حضرتك تحضري الأوراق اللازمة التي تخص الشركة ويوم الأحد أقدمك للمسؤول عن الإعلانات بالقناة لأني في إجازة لمدة يومين ..

- أشكرك جداً، أعتذر ثانية على الإزعاج .. ممكن أدعو حضرتك عندي بشقتي نشرب سوياً القهوة ونتكلم.

- يسعدني أكيد، سنرتب لهذا اللقاء لأنك تعرفين طبعاً، بحكم عملي بالقناة، مواعيدي غير ثابتة ولولا أني قد أخذت يومين إجازة لم يكن من السهل أن تجديني.

- الله يعينك .. أحب أن نكون في يوم أصدقاء

- يشرفني ويسعدني أكيد

- أستأذن، أنا قاطعتكم وضايقت الأستاذة صاحبتك سلامي لها وللجميلة الصغيرة

همت الزائرة بالانصراف وفجأة توقفت، استدارت لتواجهني وسألتني أن تدخل الحمام فهي في عجلة من أمرها ولا وقت لكي تصعد إلى شقتها ..

أجبت طلبها، وأدخلتها الحمام وخرجت لدقائق أقف مع سميرة بالبلكون، غابت السيدة هناء لدقائق طالت قليلاً ثم خرجت شكرتني وألقت بالسلام على سميرة، واتجهت للباب، وقفت بجوارها، فتحت لها الباب .. انصرفت الزائرة الغريبة وعدت للجلوس مع سميرة التي أتلهف دائماً إلى صحبتها والدفء الذي أشعر به في وجودها.

تذكرت آخر لقاء جمعني بعنان وجلست أسترجع حديثه معي، وأجتر صوراً له ما زالت منحوتة داخل عقلي وقلبي .. رغم ما وصلني عنه من أخبار

***

الحب غالباً .. اختيار

-١٤ -

النمسا

التقيت بعنان، كان لابد أن أحسم الأمر معه، لابد أن أقطع الطريق على أي قصة - أعرف عن يقين - أنها لن تكتمل .. ساقي تحملني إلى العذاب، وقلبي يتشبث بأمل رؤياه ونقطة ضوء قد يتيحها القدر له ليتنفس حياة.

كان الموعد في المكان الذي جمعنا أول مرة اعترف فيه بحبه لي، واليوم سيشهد تمزق هذا الرابط .. جلست في مقعدي أرتشف قهوتي وأبتلع معها مرارة القرار، الذي اختلط بمرارة قهوتي فلم أعد أميز بينهما.

دخل مبتسماً يحمل في يده اليمنى جورية صفراء، فهو يعلم مد ولعي بهذا اللون، مددت يدي أصافحه ومد شفتيه مقبلا لها فسحبتها سريعاً، أحاول أن أتماسك وأدعي رفضي وبداخلي شوق يجاهد أن ينطلق خارج صدري ليتفجر إلى بركان من قصائد العشق إليه..

ثنى رقبته وعبس وجهه تعبيراً عن الاستغراب والرفض لرد فعلي .. وقف (الويتر)النادل منتظراً طلباتنا ..

- ماذا ستشربين ؟

- سأطلب نسكافيه بلاك

أحضر (الويتر) النسكافيه، أمسك عنان بالفنجان وارتشف منه رشفة وأعاده إلى الطبق، ونظر إليّ منتظراً أن ينطلق من فوهة فمي جمرات وكأنه إبليس يتلقى الرجم في أحد مناسك الحج .

فتح باب الحوار، محاولاً تأجيل أي قرار سألقي به في وجهه، وسألني :هل جهزتِ حالك للسفر؟

- نعم الفضل يعود إليك، أنت من قام بكل شئ ورتب كل شئ، أفتقد بلدي ومر وقت طويل وأنا لم أعتد البعد طويلاً عن مصر، أفتقد كل شئ فيها، رائحة جوها وعبق شوارعها، بل وزحامها..

- وأنا ؟ أنا يا نجوى .. ألن تفتقدينني؟

- بلى

- أعتقد أنك طلبتِ حضوري لشئ مالا وأنا أنتظر أن تفصحي عما بداخلك

- فعلا ..

- كلي آذان صاغية كما تقولون

- لا شئ، فقط أردت أن أودعك، فلقد كنت لي خير رفيق وساعدتنا كثيراً، بل وهونت عليّ أنا شخصياً مصيبتي في فقدي لأختي وأمي ..لا أدري لو لم تظهر في حياتنا كيف كنت سأتحمل كل تلك المصائب

، بالفعل قدر الله وصاحب قدره لطفه.

- هذا واجبي ولقد أخذت أتعابي يا نجوى، أما إني خففت عنك حزنك فأعتقد أنك مَن أضفى على حياتي معنى، بل ومنحني السعادة، ولا أعتقد أني على استعداد أن أضحي بتلك المنحة.

"كم كانت كلماته ساحرة تتسرب إلى مسامات جسدي، فتسري القشعريرة تحت جلدي، فأنتفض فرحة، ولكني كتمت كل ذلك ونطقت كذباً" :

- أنا عائدة إلى مصر لإنهاء دراستي والوضع صار معقداً، ونحن نلهو بلا وعي لِما وضعنا فيه أنفسنا وأنت تعلم جيداً أنها علاقة لا مستقبل لها ولا تتمة.

- الآن خرجت الشرقية من الفانوس.

- ماذا تقصد ؟!

- سوف تختلقين العوائق والأكاذيب والأسباب التي لا معنى لها ولا محل لها من الإعراب بيننا.

- ألا ترى تلك العوائق عنان؟!

- أين هي العوائق ؟! شئ واحد كفيل بأن يهدم أية علاقة، وهو غياب الحب، وهذه منحة أهدتها لنا السماء، ألا تكونين ممتنة لها؟!

- وهل بالحب وحده تقام البيوت؟

- ستقولين الدين أليس كذلك؟! هل ترين اختلافنا المذهبي عائقاً ليحول بين ما بيننا من انسجام وتوافق روحي وعقلي .. نحن هنا نقيم العلاقات بعيداً عن أية اختلاف نوعي أو جنسي أو عرقي، أما أنتم فتعنصرون كل العلاقات وتختلقون الخلافات لتنعموا بالفرقة والعداء فتهدرون العمر والسعادة .. استوعبي كلماتي جيداً نجوى ولا ترتكبي تلك الحماقة.

- أنا شرقية، مصرية ومسلمة، وقبل كل ذلك في رقبتي طفلة منحها لي القدر فصارت أمانة، وأية علاقة تأخذني من كل ذلك تعد رفاهية لا مجال لها اليوم..

يضع يديه على الطاولة ويطلق ضحكة ساخرة بها مرارة..

- تتأخذين من نور حجة لتضحية لا جدوى منها.؟! أنت تعرفين أن وجودها لن يكون أبداً عائقاً لأني أحبها

مثلك، أما عن الاختلاف العقائدي فلا علاقة لك بما أؤمن به وما سيجمعنا هو الحب الذي تؤمن به كل الأديان وأنا لن أتدخل في إيمانك وطقوسك.

- ديني يحرم عليّ الزواج إلا من مسلم.

- نستطيع أن نتزوج مدنياً بعيداً عن الكنيسة أو الجامع.

- لا وجود للزواج المدني بديني . عنان.

- لامشكلة. نعيش معاً إلى أن نصل لحل يرضيك ويتوافق معي.

- تطلب مني أن أكون عشيقة لك؟!

-عشيقة ؟! بل حبيبتي

- عنان .. أفضل أن نكون أصدقاء بمفهومي أنا..

- نجوى .. ممكن سؤال؟

- تفضل

- هل ترين بي عيباً آخر غير الدين؟

- للأسف لا .. ليت بك عيب آخر غيره ربما وجدت عذراً لنسيانك.

- كم من مسلمات تزوجن برجال ليسوا من دينهن نجوى

- أنا لا أدين أحداً ولا أحاكم أحداً ولي عقلي واعتقاداتي التي أؤمن أنها ترضيني، ولا أريد أن أجادل في أمور لن نصل فيها إلى حل، وفي العقيدة لا حلول وسطية، لا يجوز .. ستظل دائماً الفارس الذي تمنيته وستظل في منطقة الحلم ولن تخرج إلى الواقع لتكون رفيق حياة، من الأفضل أن تظل في ركن الصديق الذي ألجأ إليه كلما احتجت إليه ..

- نجوى، أنت حبيبتي ولن أتنازل عن هذه المكانة لك ويليها كونك صديقة، سأترك لك الحرية وسأدع الزمن والحب ليعيدوننا إلى اللقاء ثانية، فهما من جمعانا أولاً..

أذكرك بشئ قد تغفلين أنت عن إدراكه، كم من مسلم في بطاقة هويته وهو في الواقع لا يعرف معنى قدسية الزواج بل ربما لا يعرف الرب، إن كان ذلك سيريحك سأذهب إلى السفارة لإعلان إسلامي ونتزوج ..

- هل إسلامك عن اقتناع؟

- لا حق لك في هذا السؤال وأقتبس من الرسول محمد قوله : "أفلا شققت عن صدره؟! لا حق لك في الاستفسار عن نيتي، لك الورق فقط ورضا الناس

- ورضا الله؟

- وهل أنابك الله لتتحدثي بلسانه؟ أنت تفتشين عن أي فاصم لتبرري جبنك!!

- عنان ! لن أسمح لك

- نجوى، الحياة قصيرة يا عمري، وأنت لن تعيشي راهبة، ستحتاجين رجلاً وستجدينه كما تريدين، مصرياً عربياً مسلماً، لكنه لن يكون عنان، وقتها سأكون في عالم آخر، لا تهدري الوقت، لقد وجدت كل الحلول وعرضتها عليك، وإن كنت فعلاً بذات القيمة في قلبك ستجدين أي رابط لنجتمع معاً لا أن تفتشي عن أي منغص للبعد، وسأحترم ارتباطك بمصر وسأكتفي بأن نتزوج وأزورك كلما سمحت لي الظروف وأن تزوريني هنا، ولندع التخطيط للاستقرار بعد انتهائك من دراستك.

- دعني أفكر بعد عودتي إلى مصر لنختبر صدق مشاعرنا بعدها سأرد عليك.

نهض وصمم أن يُقبلني في جبيني، فرددته بعدها خجلاً وحملت نور وعدنا إلى البيت لأجمع باقي حقائبي وقوتي للعودة إلى بيتي، مصر، ويدي خاوية من أحبتي، أمي، وأختي وزوجها، وعنان!!

"لا أدري هل كان غباء مني أم حكمة حين علقت القرار؟! كنت خائفة على ديني وعلى نور فخنقت أي رغبة وقذفت بضعفي بعيداً، ألتمس من الله أن يهبني الصبر وأن يبدلني خيراً"

في المطار ليلة عودتنا إلى القاهرة، تاركة أسرتي في مرقدهم بأرض غريبة، كان هناك لينهي إجراءات السفر، لم يتخل عني أو يتأخر، وكان يصحب تحركاته نظرات، أحياناً حب وكثيراً حزن ولوم، أما عني فقد كنت في كابوس مهول، أتمنى أن أستيقظ منه .. لا طاقة لي يا الله بكل هذه المواجع! المشهد الذي أعيشه لا يتحمله أي كائن، فراق أسرتي، وأمانة تنتظرني، وغد غائم، وضياع عنان من أمام ناظري، وبكاء نور التي ارتبطت بعنان طوال عام أشعرني بقسوتي وكأنها تلومني بأني السبب في فراقها عنان الذي اعتبرته بابا، كما كان يحفظها.

***

"واعتدت كوني ملاكاً للموت

أو شيطانا للحياة"

- ١٥ -

استيقظت على يدٍ غريبة تلمس جسدي وتتحسه، نهضت مفزوعة متصورة أن أمي عادت بكابوس انتقامها لأجد أبي يقف أمامي وفي عينيه تمتزج الشهوة والغضب، أزحت يده وشددت ملابسي لأستر ساقي وسألته : أين اختفيت وتركتني؟

- ما الأخبار هل أحس أحد بغياب أمك ؟

- لا .. وهل هناك من يشعر بحضورنا حتى يشعر بغيابنا ؟!

- أنا أخدت شقة بالجوار هنا بعزبة خير الله وربنا وسعها علينا.

- لكن لن أتمكن من أخذك معي لأني ما زلت في حاجة إليك هنا الأيام القادمة.

- لماذا؟ أنا لا أنام من الرعب، أريد أن أغادر هذا القبر.

- قومي اعملي لي كوب شاي وأنا أحضرت معي الإفطار لأن عندي مشوار شغل.

شرب الشاي بعدما تناولنا الإفطار وانصرف تاركاً إياي والموتى.

***

بعد الظهر جاء طارق وجلس معي واعتذر عن عدم قدرته على إحضار نقود، فلقد اكتشفت أمه تغيبه عن الدروس

سألته : هل تأخذ دروساً مثلنا؟

أشار لي : نعم .. عند مدرسين متخصصين

دخل أبي ليجد طارق بجواري على الكنبة، يغضب ويحاول ضربه، فأحول بينهما وأطلب من طارق الانصراف

أبي : من هذا الولد ؟

- إنه صاحب المدفن الذي يوجد في أول الشارع، هو الذي وقف بجانبي لما كنت وحيدة ومريضة، إنه يعطف علي ..

- هل معه فلوس يا بنت؟

- فلوس ؟! إنه مسكين وأخرس

- أخرس؟

(وسرح بفكره لوهلة) ثم قال : فيه لقمة عيش يا بنت، بل لقمة القاضي سوف نكسب فيها أنا وأنت آلاف لو سمعتِ كلامي

- خير ؟

- اسمعي وافهمي كلامي .. هناك من يريد هذا الولد، سوف نسلمه لهم ونأخد عرقنا.

- فيم يريدونه؟ ولماذا سوف يدفعون فيه آلوف؟

- وما علاقتك بهم؟! نحن سنسلمه لهم نائماً وهم يأخدونه بعيداً ونحن نحصل على فلوسنا

- لكنه طيب وعطف علي وقت تخليك عني.

- ونحن أيضا مساكين ومن حقنا أن نعيش، نخرج من تحت الأرض إلى فوقها، كما أننا نحقق قدره ما نحن إلا منفذون للمشيئة .. هل نحن الضعفاء لنا أي استطاعة في منع قدره؟!

- طيب! وماذا عن أهله؟

- ما لهم ؟ هل يعرفون أنه يزورك هنا؟

- لا طبعا

- الحمد لله، على خيرة الله .. هل معك رقمه؟

- نعم ..

- هيا اتصلي به، أقصد ابعثي له برسالة اطلبي منه أن يأتي.

- وماذا بعد؟

- سوف أترك لك زجاجة صبيها له في مشروب مثلج ليشربها وينام، وأنا سوف آتي بالتوكتوك الذي سيحمله ويقوم بإيصالنا إلى مكان ينتظرني به ناس، أسلمه لهم وأستلم مقابله النقود .. تعبي.

جاء طارق في الصباح وسألني عن أبي، طمأنته وأعطيته كوب المياه الغازية، بعد أن صببت بها الدواء الذي أعطاه لي أبي.

"شكّلت مني المدافن مدفناً حياً، يلف داخله موتى وأحياء، هكذا خطّ الغيب قدري ووظيفتي".

تم الأمر بسهولة وغاب أبي يوماً وعاد في الليل ومعه كيساً بلاستيكياً أسود، بداخله مبلغ كبير لا أعرف أن أحصيه، ولم أسأله عم حدث لطارق، إنه قدره كما ردد أبي!

***

-١٦-

المعادي

تفاجأت باسم هناء الذي أصابني مقتلها بصدمة، أجبته بما حدث من زيارتها المفاجئة لي، وطلبها أن أقدمها للقناة لعمل إعلان عن شركتها، قال لي إنها وجدت مذبوحة بشقتها ..

الخبر أزعجني وأحزنني، فلقد شعرت بالأسى لنهاية امرأة تعرفت عليها، ثم سألته : هل تعتقد أنه لص من قتلها؟ فهي كانت ترتدي الكثير من الحلي تلفت وتغري ذوي النفوس الضعيفة لسرقتها.

أجاب وكيل النيابة : لا نعرف حتى الآن، لكن سنواصل التحريات ونكتشف من الفاعل، خاصة أن العمارة مؤمّنة تماماً ودخول القاتل ليس سهلاً.

حياني وانصرف بعد أن أعطاني (كارت) به أرقام تليفوناته للاتصال به إن تذكرت شيئاً يخص المرحومة هناء.

حمدت الله أن نور كانت عند سميرة في ذلك اليوم، صعدت إلى شقتي وأنا في حالة من الذهول وكذلك

الانزعاج، صنعت فنجان قهوة، وجلست وقد تناوبتني الهواجس والخوف من فكرة الموت والقتل والخوف على نور .. كنت أعتقد أن العمارة مؤمنة، فإذا بمقتل هناء يكشف لي أنه لا أمان هنا ويجب أن أفكر في طريقة، لن تتحمل نور العودة إلى مكان حدثت به جريمة قتل.

ظللت أتجول في الشقة بلاهدف، تتلاعب بي الهواجس والأفكار .. اتصلت بسميرة وطلبت منها إقناع نور بالبقاء عندها حتى آتي لاصطحابها، وأخبرتها بمقتل هناء.

ترى لماذا جاءت هناء إلي وماذا كانت تريد؟ هل كانت تبحث عن حماية لها من أمر ما؟ هل أرادت أن تُسر إلي بأمر ما ثم ترددت، أم أن القدر لم يمهلها ؟

ألقيت على جسدي بالطو وارتديت البوت، ركبت المصعد ووصلت للدور الأرضي لأجد تجمع رجال أمن العمارة يتهامسون فيما بينهم عن مقتل هناء ونتائجه السلبية عليهم.

- لاشك سيتم فصلنا جميعاً..

لم أقف للمشاركة في الحوار، فلابد أن أطمئن على نور وألحق بها لأخبرها بالأمر بطريقة لا تثير خوفها ..

***

دخلت شقة سميرة وجلسنا للتحدث قبل أن ألتقي بنور التي كانت بغرفة سارة.

- ماذا ستفعلين يا نونا؟ أعتقد ليس آمنا أن تستمري بشقتك لابد من الانتقال لمكان ما بعيداً عن التحقيقات والشرطة، فذلك سيخيف نور وحتى أنت لن نطمئن عليك هناك، نجوى! فيم كانت تريدك السيدة التي ُقتلت والتي تسمى هناء؟

- لا أعرف يا سميرة .. أشعر أن هناك سراً كبيراً وراء هذه السيدة، وأنها لجأت إلي لعلمها بمكانتي في الإعلام وأشعر أنه خطب جلل، فالعمارة مؤمنة تماماً، أن تُقتل بلا أدنى صوت وبلا حركة تثير رجال الأمن لهو أمر غريب .. إلا إن كان ... ؟؟!!

- إلا إن كان ماذا؟

- أشك أن من دخل العمارة كان بتسهيل من أحد رجال الأمن .. تذكرت الآن موقفاً لم يلفت نظري حين حدوثه ولكن أثار فضولي الآن، رجل الأمن عندما سألته عن هناء حين جاءتني أول مرة وقابلتها نور، أنكر أن هناك امرأة بهذه المواصفات وتلجلج .. فعلاً العمارة ليست آمنة الآن، سأضطر إلى حجز غرفة في فندق حتى

أرتب أموري فلا أستطيع أن أترك نور بمفردها بالشقة وأنا مشغولة طوال النهار.

- ولم الفندق؟ ابقيا معنا هنا حتى ترتبين أمورك، فقط سنذهب لإحضار كتب نور وبعض الأشياء التي ستحتاجان إليها ونعود .. ماذا ستقولين لنور؟

- هي ليست صغيرة سأخبرها بما حدث

ناديت على نور وقصصت عليها ما حدث وطلبت منها البقاء مع سارة، وأخبرتها بأنني سأتوجه إلى الشقة مع أنطي سميرة لإحضار كتبها وبعض الاشياء.

***

عدت مع سميرة إلى شقتي ودخلت غرفتي لإحضار بعض الملابس لي، ثم انتقلت إلى غرفة نور لأجمع كتبها ..

ودخلت الحمام لأطمئن على المياه وغلق الغاز وإحضار بعض الشراشف، فإذا بظرف بني يسقط من دولاب المناشف، قلبت الظرف وناديت على سميرة وتوجهت إلى الصالة .. جلسنا في حالة من الصمت والذهول وعشرات الأسئلة تدور برأس كل منا ..

"لقد أطلقت هناء الكوابيس من آنية باندورا "

-١٧-

"آنية العسل"

البساتين

كنت كآنية العسل التي تغري الحشرات لتسقط بداخلها ميتة، اقترح أبي أن أظل بالمدفن لأنه سيكون أكثر الأماكن أمناً ورزقاً لنا، وأنه سوف يأخذني معه إلى شقته بعزبة خير الله، لكن بعد أن نجمع مبلغاً، كما يقول، محترماً.

لا أدري ما نوع التجارة التي يعمل بها ابي، كنت أعتقد أنه يبيع هؤلاء الأطفال إلى من حرموا من الإنجاب، لا أنكر أنها كانت مربحة جداً، كان دوري يتلخص في إغواء أحد الأطفال الذين يصحبون ذويهم لزيارة المقابر كل جمعة، على ألا يلمح أحد تواجد الطفل أو الطفلة معي .. تمكنت من الإيقاع بثلاثة أطفال بنفس الطريقة التي أوقعت بها طارق، وبعد أن انتهينا من تلك الصفقة كان لابد من هجر المدفن ..

بعد كل صفقة وغياب طفل، أنظر إلى نفسي بالمرآة المعلقة بالغرفة، ألاحظ أن وجهي صار جافاً بلا ماء، وعيني تخرج منهما نيران، وأسناني تغيرت معالمها

وكأنها لمصاص دماء، وأجد شعري أزرق اللون، وفي خلفية المرآة تقف أمي وبيدها سيف .. نعم صارت السكين سيفاً تمسكه بكلتا يديها وتنزل به على رأسي فأنزعه منها وأشق رأسها ورقبة أبي..

"في منزلنا سيدة تصلي"

كانت شقتنا بعزبة خير الله واسعة بالدور الأرضي، دخلتها بعد أن أتممت عامي السابع عشر تحت الأرض لأخرج إلى العالم العلوي وأتنفس الهواء وأسمع أصوات البشر وأبواق السيارات والتكاتك، حياة لا ترتقي كثيراً عن حياتي بالمدفن ولكنها كانت مؤنسة بالزحام.ضجيجه يحجب عني صرخات أمي وأطفال نزعتهم من احضان أمهاتهم.

فقد أمسى الهدوء يعج بالكوابيس والعفاريت التي خلقها خوفي وجريمتي، وضع أبي أمواله في كنبة وأغلقها بقفل وتركني بالشقة التي كانت جاهزة للمعيشة .. مطبخ صغير به بوتوجاز وثلاجتنا العرجاء، ويجاور المطبخ حمام صغير مربع، الشقة غرفتان وصالة صغيرة.

وضع أبي بداخل إحدى الغرف الكنبة ومنضدة فوقها تلفاز، وبالغرفة الأخرى سريراً ودولاباً صغيراً بضلفتين وسجادة..

بغرفة النوم شباك يطل على الشارع، كل من يمر يرى من بالغرفة ، هذا لا يضايقني فأنا أشعر الآن بالأمان في صحبة الزحام والبعد عن رائحة الموتى.

عاد أبي، تناولنا الغداء وجلس معي ليفاجئني أنه سيتزوج.

الخبر أزعجني وأثار بداخلي غضباً، هل سيتكرر معي ما كان يحدث بينه وبين أمي؟!

لا لن أجلس متفرجة، لقد سئمت هذا الرجل وأشعر بغثيان كلما وُجد معي في مكان، وهو شعر بذلك وأعتقد لو سنحت له الفرصة لقتلني مثلها .. قتلني؟!

حتى الآن لا أعرف هل أنا مع الأحياء وما أعيشه ماهو إلا كابوس أم أنني ميتة وما أعيه مجرد ذكرى عن حياة عشتها؟

لن أفكر إلا فيما يدور أمامي الآن ولن أفكر، سأجاري الأحداث سواء كانت كابوساً أم حياة..

أنا أرى الأكياس السوداء الممتلئة بالنقود التي تعبت في جمعها، فهي حق لي ولن أتركها لتؤول إلى امرأة أخرى .. هل سأعود لأستجدي من أبي وزوجته فلوسي؟

لا .. لن يحدث..

لم يمهلني أبي طويلاً في التفكير فلقد أحضر امرأته بعد أن عقد عليها

كانت سيدة في الثلاثين من عمرها، ليست جميلة، بوجهها بقع وحفر وحبوب أعتقد أنها زيادات جلدية زادت من قبح ملامحها .. هذا الرجل لا ذوق له في النساء، إنه لا يفكر إلا في الجزء السفلي من أية امرأة.

نمت ليلتها بالغرفة التي تحتوي على الكنبة، دخل أبي مع عروسه غرفة النوم ومعه الشيشة والحشيش، وأغلقا خلفهما الباب، وتركاني وحدي والنقود .. كان من السهل أن أكسر القفل وآخذ كل أكياس النقود وأهرب لكن إلى أين؟ ليس لي أهل ولا وجهة، أحتاج مزيداً من الوقت حتى أجد لنفسي منفذاً بعيداً عن هذا العالم، ولابد أن أفهم لعبة التجارة التي يمارسها هذا الرجل حتى لا أعود ثانية إلى المدافن.

استيقظت على هزة من يد زوجة أبي، التي أيقظتني لأجل الإفطار .. بدت عليها الطيبة، تعجبت حين رأيت سجادة صلاة مفروشة على الأرض..

سألتها : هل تصلين؟

- نعم طبعا .. يجب أن نشكر ربنا على نعمه الكثيرة.

"في بيتنا سيدة من السماء"

تناولت معهما الطعام، وقمت لعمل الشاي، لكنها سبقتني وطلبت مني الراحة، حاولت كثيراً أن تستميلني إليها ولكن كنت أقابل طيبتها بالاستهزاء والجحود إلى أن تمكنت مني، فلقد كانت طاقة الحب بداخلها كفيلة بسجود الشيطان.

في أحد الأيام جلسنا سويا نحتسي الشاي، وكان أبي غائباً في عمله .. سألتها أين كانت قبل الزواج بأبي؟

أجابت بأنها جاءت من الصعيد لكي تبحث عن عمل فلا أهل لها، وشاءت الأقدار أن تعمل في إحدى العيادات كعاملة نظافة، لم تتزوج ولم يتقدم لها أحد لفقرها ولأنها ليست جميلة وليست متعلمة، من سيلتفت لفتاة مثلها تفتقر إلى كل شئ؟!

قابلت أبي في العيادة وسأل عنها وعرف ظروفها، لأنها كانت تبيت في العيادة بعد انتهاء العمل، فلا مكان لها بالقاهرة، عرض عليها الزواج فقبلت .. كانت أسمى أحلامها أن تجد أربعة جدران تأوي إليها تحميها من البرد ومن الذكور، الذين تؤرقهم أجسادهم بنصفها

السفلي ولا يجدون أي مانع أو وازع أخلاقي من انتهاك حرمة جسدها، فقط لأنها بلا سند أو بيت .

طلبت مني أن أسامحها لو كانت أخدت مكان والدتي، فهي - كما قالت - في دار الحق والحي أبقى من الميت.

"هذه المرأة تتحدث بكلمات يقشعر لها بدني"

محاولة أن أهرب من ضعفي تجاهها سألتها عما كان يفعله أبي في تلك العيادة؟

- لا اعرف، كان يأتي لمقابلة المدير في شغل بينهما لكن لا أعرف ماهو؟ وأحيانا كانا يتواصلان عبر الهاتف

- آه !!

- على فكرة يا ناهد أنت جميلة جداً وإن شاء الله ربنا سيرزقك بشاب جميل يحبك ويخاف عليك.

عجبت لذكاء قلبها حين نادتني بناهد، وحين وعت ما يسعدني من أشياء ومن طعام، فلم تأل جهداً في إسعادي.

"رب أم لم تنجبك"

يدخل أبي ومعه شاب، إنه أخي، ذلك الملاك الوديع الذي سقط من السماء على سبيل الخطأ ليكون ابناً لهذا الرجل وأخا لمثلي .. البيت تحفه الملائكة بوجود أخي وزوجة أبي.

رحبت به ونادى عليّ أبي لألحق به إلى حجرة النوم، قال لي : إياك أن تحكي له شيئاً، أنا قلت له أمك ماتت من الحمى .. هل تفهمين ؟

أجبته : نعم فاهمة.

كان أخي طيباً، فهمه محدود، طوال عمره كان أطيبنا وأكرمنا، إنني أحبه ولم أحب أحداً من أسرتي إلا هو، سعدت بوجوده ولاحظت حزنه على موت أمي، ولاحظ هو شكلي الذي وصفه بالكبر، نعم كبرت، فبداخلي دفن موتى لو جمعت أعمارهم لكنت بعمر أحد المومياوات، وفي أذني صدى أصوات قتلى أبي وقتلاي.

"البعض يبحث عن الحرية وآخرون يسرقون الخبز"

بعد أيام قامت الثورة وخرج أخي مع بعض أصحابه إلى الشوارع للمشاهدة والاستمتاع بمنظر البلد بعد غياب الأمن، وقد أغواه أصحابه لسرقة بعض المحلات الكبيرة في منطقة المعادي، وبعض الشركات التي قام اللصوص بكسر أبوابها وسرقة ما بها من أجهزة كمبيوتر وثلاجات وأجهزة تليفزيونية.

امتلأت شقتنا بخير كثير وامتلأت ثلاجتنا بما لذ وطاب أثناء الثورة، لقد كانت بشرة خير علينا، إلى أن جاء يوم خرج فيه أخي مع أصحابه بالقرب من مركز الشرطة بالمعادي لسرقة بعض المحلات القريبة، مستغلين انشغال الأمن في فض المظاهرات، لسوء حظه وحظ أصحابه تم إطلاق النار العشوائي لتصيب أخي في مقتل، غاب يومين وخرج أبي للبحث عنه إلى أن استدل عليه بالمشرحة..

لم يمر مقتل أخي إلا وقد استفاد منه أبي، حيث درج اسمه على سبيل الخطأ شهيداً من شهداء الثورة وحصل على تعويض كبير ورحلة عمرة .. عاد أبي ليفتح كشك سجائر في إحدى المناطق الحيوية بالمعادي، حيث علق عليه صورة أخي وأسماه " كشك الشهيد".

لا أعرف ما معنى " شهيد"، تذكرت ما سمعته في أحد دروس الدراسات الاجتماعية، أنه من مات مدافعاً عن وطنه وشرفه ..

وطن؟ وهل تستحق المقبرة التي هي وطني أن أموت في سبيلها؟!

أو ربما شرفه .. شرفه؟! ماهو الشرف؟

يقال إنه الغشاء الشفاف عند الفتاة العذراء، ولماذا من مات دون غشاء بكارة البنت شهيدا؟! حمقى والله

أما أنا فلم أحزن في حياتي إلا على أخي واعتبرته بداخلي شهيداً بالفعل، لقد مات لكي يغنينا، فهو بالفعل يستحق هذا اللقب، شهيد، فهو لم يكن أبداً شيطانا ولا يعي أنه كان يسرق، إنه ينتزع نصيبا كان لنا وطمع فيه شركاء لنا في هذا البلد .فلقد قال لي ذات يوم :

- أنا لا أسرق يا ناهد، المحلات مفتوحة ووجدت الناس كلها تحمل حاجات، قلت نحن أولى، وأصحابي قالوا لي إنها ليست سرقة بل حقنا لأنها بلدنا وهؤلاء هم اللصوص.

مات أخي ضحية لغبائه .. كيف لمثلنا العيش في راحة؟! كيف تصور أننا سنتقاسم معهم هذا البلد الذي نعيش على أطرافه؟!

جئنا هنا لنتغذى على بقاياهم، وندفن موتاهم، والآن ندفن أحياءهم.

اعتقدت أن أبي سيكتفي بما كسبه من ثروة، وأنه سوف يغير نشاطه ويكتفي بالبيع في الكشك الذي كان يدر عليه مبلغاً لا بأس به، فلقد أصبح الكشك رمزاً لأسرة ثارت ولديها شهيد كافح وضحى بنفسه لأجل العيش والحرية والعدالة الاجتماعية، ولأجل الفقراء، فلم يكن يجرؤ أي إنسان على لمس الكشك أو أبي..

استغل حصانته من لقب منحه له أخي بموته كأب للشهيد، وإحساس الناس بالشفقة عليه ليكون مركزاً لصفقاته، وكنت أشاركه في كل خططه.

***

في أحد أيام الجمعة وجدت ضيوفاً بشقتنا، ودخلت زوجة أبي إلي الغرفة تزف إلي خبر العريس القادم مع أبي .. أعرفه جيداً، فهو أحد شركائه في التجارة.

تمت خطبتي لمجدي، وكنت قد أغفلت عن ذاكرتي أني لست عذراء، بل أسقطت من تاريخي ما حدث لي مع أبي، ولاشك أنها ستكون فضيحة.

لا أدري لم تمنيت أن أرى أبي منكس الرأس مفضوحاً على رؤوس الأشهاد، شعرت بنشوة غريبة من مجرد الفكرة وابتسمت، فكانت زوجة أبي معه في الغرفة فإذا بها تدخل غرفتي وتطلب مني أن أصارحها بما حدث.. لقد قص عليها أبي نصف الحقيقة، وهي أني فقدت عذريتي، ولكنه لم يخبرها بمن الطرف الآخر في تلك الخطيئة، الخطيئة يرتكبها اثنان لكن لا يعاقب إلا الطرف الأضعف .. تصور أبي أنني هذا الطرف، أحمق .. اختلقت قصة حب وصدقتها، كانت حنون وناصرتني ووعدتني أن سري في بئر، وأنها سوف تساعدني في علاج ذلك وطمأنتني أن الأمر بسيط ..

قبل الزفاف بثلاثة أيام صحبتني زوجة أبي إلى العيادة التي كانت تعمل بها وأجروا لي عملية التجميل، وتم الزفاف وانتقلت للحياة مع زوجي في شقة بالقرب من شقتنا، حيث بدأت مرحلة أخرى من حياتي واقتربت من نهاية قصتي.

"إن ركعت لأحدهم فتقبل أن يمتطيك"

-١٨-

كما وعد حماته .. التقى بها في يوم الجمعة للذهاب معها لحجز إحدى الشقق بإحدى العمارات بالبساتين، دفعت له الحماة المقدم، وكان مبلغاً كبيراً بالنسبة له لا يدري كيف ومتى سيرده لها، وكيف سيوفر الأقساط الشهرية، فلقد اشترط صاحب العمارة أن ينتهي من سداد الأقساط على خمسة أشهر.

عادت الأم فرحة، فلقد أنقذت زيجة ابنتها من الفشل، وشعرت بالراحة من اقتراب زواجها، فهي في قرارة نفسها تريد أن تطمئن عليها أو أن تتخلص منها ومن تمردها وتطلعها، فهي كما المُهرة الجامحة ومثلها يجب أن يتم تزويجها سريعاً حتى لا تلحق بهم الفضيحة .

دخلا إلى الشقة ولتلقي بخبر حجز الشقة على ابنتها. تفرح منار وتشعر بالانتصار، فلقد تمكنت من دفعه ليحقق لها ما أرادت .

جلس ناصر مدعياً الفرحة، وهو غائب في التفكير وبحثا عن حلول لتلك الأزمات التي أغرقته فيها خطيبته وأمها، ولكنه احتفظ بخوفه حتى لا يفسد فرحة منار.

دخلت الأم لإحضار كوب الشاي لناصر، وجلس هو مع خطيبته لتفاجئه بطلبها أن يحدد موعداً للنزول إلى المناصرة لشراء الموبيليا

- اصبري يا منار إلى أن أسدد أقساط الشقة ..

- كما أخذت الشقة بالقسط نستطيع أن نحجز الموبيليا بالأقساط أيضاً.

هكذا أشارت عليه ..

- طلباتك يا حبيبتي أوامر، أنتِ فقط ارضي علي واصبري

- تسلم لي

قالتها ومالت بوجهها إلى صدري فأثارت بداخلي غليان كما طنجرة فوق النار، فارتفع الغطاء وتراقص من شدة البخار، مددت يدي لأحتضنها وأنزع منها قبلة، لتتهرب من تحت يدي وتنهرني قائلة : الحق موعد وردية الميكروباص.

تركتني أعاني ألمي وفورة ذكورتي، تعرقت وقمت من فوري هارباً من تلك الفتاة التي سلطها علي القدر لتلعب بقلبي وجسدي كما العبد بين يديها.

أثناء نهوضي اصطدمت بكوب الشاي الذي سقط على ساقي وألهبت سخونته وأنوثتها جسدي.

غادرت، وأثناء هبوطي الدرج سرت إلى أذني رنة ضحكتها التي تعلن بها انتصار شبابها وأنوثتها علي.

تذكرت ديوني ووردية الميكروباص، هرعت لألحق بزميلي الذي انتهت ورديته ولا شك أنه يسب في ويشتم الآن، فلقد تأخرت عليه جداً.

خرجت الأم على صوت رنة ضحكة ابنتها وسألتها :

- أين ذهب ناصر ؟

تجيب منار : جرى وأوشك أن ينكب على وجهه

(وضعت كفها لتكتم ضحكة ساخرة).

ردت الأم : ارحمي الرجل يا ابنتي، حرام ما تفعلينه به، ناصر يحبك ويتمنى رضاك، إياك أن تضيعيه من يدك.

لترد الابنة: لا تقلقي لن يضيع، لن يستطيع، إنه غارق في حبي وجمالي .

كما إنه لم يقدم لي ما يجعلني أفضله على غيره، وأعرف أنك من أقرضتيه مقدم الشقة، يعني أنت تعطينه ابنتك الصغيرة الجميلة وعليها شقة، يحمد ربه ويسجد له شكر فلا شك أنه نال رضا أمه حين التقى بي، أنا

هدية له .. اسكتِي أنت يا ماما، ألا تذكرين خطيبته التي سبقتني ؟! التي فسخت خطبته لأنه كان ملتصقا بها ولا يريد أن يتحرك ويتركها، كان طول اليوم يحب فيها وقالت إنها صبرت كثيراً حتى ملت منه ومن كسله وبروده وتركته وتزوجت غيره؟

أنا لو تركته دون ضغط لن يتحرك، من هم مثله يجب أن تمسكي لهم كرباجا ..

- لم يا ابنتي .. هل هو حمار؟

- نعم

(ورنت ضحكة تنم عن ثقتها بنفسها وبقدرتها على امتطائه وتوجيهه كما تبغي)

***

بعد الانتهاء من وردية الميكروباص في الثانية عشرة مساء، توجه إلى أخيه لزيارته ليزف إليه خبر حجزه للشقة، وموقف حماته البطولي معه، محاولة منه لتجميل وجه أسرة عروسه ويشاركهم فرحته في حجز الشقة، بارك له أخوه، ولكن وجه له سؤالا عن كيفية حصوله

على مقدم الشقة، قص عليه الموقف الشهم الذي قامت به حماته.

حاول أخوه أن ينصحه بألا يتمادى في الاستجابة لكل طلباتها؛ لأن ذلك سيزيد من تسلطها وسيدفعه هذا التسلط لارتكاب الكثير من الأخطاء لتحقيق طلباتها...

- أنا كبرت ولابد أن أسرع في الزواج حتى أنجب وأصير أبا، من هم في مثل عمري لديهم من الأولاد اثنان وثلاثة وأنا ما زلت بلا زواج أو بيت، هي بنت ذكية وطيبة وتحبني ولولا تشجيعها لي ما تمكنت من حجز الشقة، وإن شاء الله سأتمكن من سداد الأقساط وشراء الموبيليا والزواج.

- من أين؟ يا أخي أنت مرتبك من الشركة ودخلك من الميكروباص لن يكفيا كل ذلك

- ربك موجود

- ونعم بالله، لا يجوز الرضوخ لطلبات البنت جميعها لأنها متطلعة وأخشى عليك من تطلعاتها التي لا تتناسب مع إمكانياتك.

سكت ناصر وشعر بضغط أخيه وبأنه لم يشاركه فرحته، فاستأذن في الانصراف.

حاول الأخ أن يعتذر عن عدم مباركته له على حجز الشقة، وطلب منه ألا يغضب من نصائحه فهو لم يتعصب إلا لخوفه عليه وإحساسه بإستسلامه لتلك الفتاة..

هز ناصر رأسه وطمأن أخاه أنه ليس ضعيفا لهذه الدرجة..وانصرف

*

ـ ١٩ ـ

من هي هناء؟!

جلست مع سميرة في حالة وجوم ورعب، فكيف وصل هذا الظرف الى شقتي ؟ والمخيف أكثر كيف وصل إلى الحمام؟ هل شقتي مخترقة؟

فجأة تذكرت سميرة هناء وقالت لي إنها هي، هي من دخلت الحمام وتركت الظرف هناك، يبدو أنها كانت تحاول إعطاءه لك ..

- لماذا لم تعطه لي وهي معنا في الصالة؟

- أكيد كانت تريدك أن تتسلميه في وقت ما؟ افتحيه لنرى ما به.

فتحت الظرف لأجد بداخله USB وصوراً لمجموعة أطفال، وشهادات ميلاد، وأسماء أطباء مشهورين وأرقام تليفونات ومفتاح لخزينة ببنك.

- أنت فاهمة حاجة يا نجوى؟

أتمنى أن تكون شكوكي أوهاماً يا سميرة، "قلتها وأنا في حالة حزن وغضب ورعب".

- ماذا ستفعلين؟ يجب أن تسلمي ذلك الظرف للنيابة

- دعيني أفكر سميرة .. هناء تركته عندي لا لأسلمه للنيابة أكيد .. هناك سبب آخر، لابد أن أفهم وأجمع خيوط الموضوع قبل أن أتخذ قرارا.. سميرة هيا بنا من هنا سأغلق الشقة وأنتقل الى فندق لأمان نور.

- لا .. أفضل أن تبقوا معنا أكثر أماناً من تركككما وحدكما

- لا أريد أن أتسبب لك ولأسرتك بأي أذى .. ابتعدي عن هذا الأمر سميرة.

أخذت اللاب توب ولملمت كل أوراقي الهامة، وكل متعلقات نور، وأغلقت الشقة وحجزت غرفة بأحد الفنادق القريبة من سميرة وانتقلنا أنا ونور.

***

- ٢٠ -

وتأكل النيران بعضها

مرت أربع سنوات منذ مغادرتي الحوش، وتوسعت تجارة أبي واشترى سيارة سوزوكي وبدأ اسمه في الشهرة في المنطقة، وتوسعت علاقاته مع تجار الرخام، وزادت حركة الزوار إلى بيتنا، منهم ممرضات وأشخاص بسيارات فارهة وغالباً يتحركون بأسماء وهميه أو حركية كما نقول، هذا أبو الدهب وذلك أبو الحديد وتلك الحاجة أم الرجال وهكذا.

كان زواجي من مجدي صفقة بين أبي وبينه، فبينهما تجارة، لم يأمنا أن يدخل بينهما غريب فأرادا أن تكون العلاقة أكثر أرتباطاً لكي يشعرا بالأمان، فكان الزواج..

اكتشفت في الليلة الأولى من الزواج أن زوجي المصون مدمن لكل أنواع المخدرات وكل أنواع المحرمات، يجد متعته في كل ما يخالف الطبيعة والفطرة وكأنه يعاند المجتمع ويبصق في وجهه، ويركل قوانينه ومحرماته، فكان مرفوضا هو أيضا من مجتمعه .. أنا أيضا لم أشعر بأي راحة في وجودي معه.

اعتاد أن يقيم سهرات لأصحابه كل خميس بشقتنا..

مرت الشهور الأولى من زواجي ما بين هروب مني ومحاولات منه لإثبات رجولته لتنتهي دائما بالفشل، وكل ليلة أبيت وقد نهشت جسدي الرغبة وعانيت من آلام في مكمن أنوثتي، وصفت ما أشعر به لزوجة أبي فأشارت علي ضرورة الذهاب الى طبيبة النساء، ذهبت مع زوجة أبي إلى طبيبة النساء وسألتني عن علاقتي بزوجي وهل هي جيدة، أخبرتها عن ضعفه فطلبت مني أن أنصحه بأن يعرض نفسه على طبيب متخصص. قررت لي جراحة لتنظيف ورم أصاب الغدة المهبلية، أجريت الجراحة وخرجت مع زوجة أبي إلى بيتي، وقامت هي على خدمتي ونصحتني أن أفتح معه الأمر بهدوء حتى لا يعتبره إهانة فربما ينتهي الأمر بأن يضربني.

***

عاد مجدي من سفر استمر أسبوعاً، وفي مساء عودته كان بصحبته رجلان، كعادته كل خميس، من أصحابه يتناولون المخدرات والبيرة ومشاهدة الأفلام التي يسمونها "أفلام ثقافية"، إنه الاسم الذي اعتادوا أن

يطلقوه على الأفلام التي تعرض مشاهد ساخنة .. نظرت من وراء الباب لأرى لقطة من الفيلم الذي يشاهدونه، وفجأة رأيت زوجي يحتضن أحد الرجلين ويدخل به إلى حمام الشقة، أدركت الآن لم يرفضني وغير قادر أن يكون زوجاً ولن يكون..

دخل الرجل الآخر غرفتي ومعه كوب من البيرة وسيجارة، كنت في هذه اللحظة في حالة من الضعف والعطش، العطش إلى لمسة رجل لجسدي، إلى أن أشم نفس رجل خلف أذني، أن أستمع إلى كلمات تثيرني وتهتز لها أنوثتي، تركت جسدي له بعد أن أشبع جوعي الذي استمر لسنوات .. جلست على السرير خائفة من زوجي، أضحكه خوفي وطمأنني أن مجدي لا يغار، كما أنه لا تستهويه النساء، ورن ضحكة كانت مشبعة برائحة الخمر، سألته: ولماذا تزوجني ما دام لا يحب النساء؟!

أجاب بأنه أراد أن يجمل صورته أمام الناس، لكن الجميع يعلمون أنه ليس له في النساء.

أكملت استفساراتي بأن سألته إن كان أبي على علم بذلك، فأجاب : نعم كان على علم.

لقد باعني إليه لكي يتخلص مني.

- بل ليكمل الحلقة.

- ماذا تقصد ؟

- أراد أن يضمن ولاءه، ففي مهنتنا لا مكان لغريب، دعك من كل ذلك، فلقد تمنيتك منذ أول لحظة رأيتك فيها في ليلة عرسك، لقد حقدت على مجدي ذلك الفاشل أن تقع بين يده امرأة بأنوثتك وجمالك، تمنيت أن تكون الليلة لي، وكأنما أبواب السماء كانت مفتوحة واستجابت لي .. لا تضيعي اللحظة فلن يهتم مجدي بك ولا تعنين له شئ .

اعتدلت وهدأت مخاوفي وطلبت منه سيجارة، كنت أنفخ دخانها في وجهه وفي وجه الدنيا، وشاركني تدخينها وتجرعت كوب البيرة ثم أكواب ..

إنه عبد الفتاح، الرجل الذي اقتحم روحي وأمسى منذ تلك الليلة زوجي الحقيقي، أما مجدي فكان زوجي أمام الناس .. هكذا كل خميس، زوجي يدخل مع عشيقه إلى غرفة ويستأثر بي عبد الفتاح.

في أحد أيام الخميس، وكانت الأحداث تتكرر من علاقة مجدي بصاحبه وعلاقتي بعبد الفتاح، الذي كنت أناديه بفتحي، هكذا اعتدت أن أسمي الأشياء والأشخاص بأسماء ذات دلالة لعقلي، فلقد كان فتحي أول رجل

اقتحم قلبي وكان فاتحاً للباب الذي أدخلني إلى الحياة، إذا بأبي يزورنا..

حدث شجار بين أبي وزوجي انتهى بأن هدده بالإبلاغ عنه، خرجت فجأة لأشاهد العراك الدائر بينهما وتهديد أبي له، حاولت أن أفهم ما الأمر ولكن مجدي أدخلني غرفتي وأغلق الباب .. ارتفع صوت الجميع وزادت الأمور سوءا وانتهت المشاجرة بانصراف أبي وغلق الباب مهدداً مجدي وأصحابه..

سمعت صوت مجدي وهو يتحدث مع فتحي والرجل الآخر قائلا: هو الذي جنى على روحه .. هو فاكر أن دخول الحمام كما خروجه؟!

جاءت اللحظة التي أنتقم فيها من أبي، هذا الرجل الذي يتلخص دوره في هذه الدنيا في سلب السعادة والسلام مني .

بعد انصراف أصحابه سألته عما حدث، رد قائلا :

- أبوك عاوز يشفط كل شئ في بطنه لكن لن نمكنه من ذلك والله أدفنه في مكانه .. وعاوز يعلمني في بيتي الأصول وناسي أن أنا حر في حياتي وزوجتي، سيعملهم علي ويعمل فيها حامي حمى الفضيلة؟!

خرجت من شفتي جملة : نتخلص منه

- غريبة أنت التي تقولين ذلك، إنه والدك؟!

قلت له : أنت زوجي وهذا بيتنا، وبيتنا أهم، فقط دعنا نخطط صح حتى تبعد العين عنك .. هو يقضي الأحد كله في بيته، ممكن أساعدك توصل له، شرطي أن تبعد عن زوجته فلا تؤذيها.

- أنت حقنة .. أليس هذا الرجل أباك أم ماذا؟!

- أبي طبعا لكنك أنت زوجي أيضا وهو يسعى لهدمك.

***

كنت في طريقي لزيارة الطبيبة لمتابعة حالتي، فأنا أتمنى طفلا من فتحي، لا يهمني إن كتب باسم مجدي وهو أيضاً لا يهتم، لكنها صدمتني بأنني أعاني من عجز يصعب معه الحمل، وأنني يجب أن ألجأ للحقن المجهري إن كنت أرغب في الحمل، كما اعتدت كلما تأزمت الأمور ألجأ لزوجة أبي، لا شئ ممتع مع مجدي، كنت أحلم أن أجد هدفاً في حياتي أستمتع به، فالسنوات تمر والمسافة تقصر حتى تكتمل القصة فإحساسي أن نهايتي وشيكة صار كما الشمس واضحاً.

كنت أُحدث نفسي وشعرت بالراحة عند التفكير في زوجة أبي وعينيها التى أشعر في نظراتهما بالحب والدفء، فحتى الآن مازال البرد يتسلل إلى جسدي لأرتمي بحضنها وأبث إليها حزني ..

توجهت إليها فإذا بسيارة حريق بالمنطقة والناس تصرخ، والبعض يحوقل، والآخرون يمصمصون الشفاه، وعدد من الرجال في البيت الذي يسكن فيه أبي وزوجته..

لقد احترقت زوجة أبي وانتقلت الى المستشفى، وبعد أيام ماتت، شهيد آخر غادرنا، ماتت السيدة التي كانت تتحدث إلى الله، أنقذها من الروث الذي سقطت فيه وتم دفنها في مقابر الصدقة .. ماتت المرأة التي أحسست بحبها وكانت الحضن الذي احتواني وبقي أبي .. لم أقصدها بالموت

لقد غادرتني الملائكة، هي ومن قبلها أخي الشهيد .. الأرض صارت نجسة بعد أن غادرها الطيبون ..ا لبيت عادت إليه اللعنة ..

"وانطلقت الشرور"

-٢١-

أحد الفنادق بالقاهرة

جلست أنسخ كل ما بداخل الـ USB، وقمت بتصوير كل الأوراق التي كانت بالظرف، وجلست أبحث عن صور الأطفال على موقع بالنت لتظهر لي بعض المعلومات الخطيرة، عدد من أسماء هؤلاء الأطفال دُكر في عدد من المواقع التي تعلن عن تغيب الأطفال واختفائهم..

فجأة أجد اتصالاً من "ريسبشن" الفندق بأن هناك أمين شرطة يسأل عني، نزلت للقائه، طلب مني التوجه إلى النيابة لأمر هام، أخبرته بأنني سأتوجه الى النيابة بعد نصف ساعة بمجرد أن أصعد لأطمئن ابنتي..

توجهت إلى النيابة وقبل أن يسألني وكيل النيابة أخبرته عما وجدته بشقتي، وقصصت له كل شئ وتركت لديه الظرف وسمح لي بالانصراف

"بالطبع كانت معي نسخة من كل محتويات الظرف"

أردت بذلك التصرف أن أبعد وابنتي عن كل تلك المصائب، ولكن لكل منا دوره في صياغة أقدار الآخرين، فلقد كنت واهمة.

تلقيت مكالمة كانت بمثابة إنذار بأن القدر يخبئ لي مزيداً من الآلام، طلب مني المتصل تسليم ما معي من أوراق وإلا سأفقد ابنتي .. أغلقت الموبايل وحاولت أن أستجمع شجاعتي، أخذت موبايل نور وضربت رقم وكيل النيابة وأخبرته بالتهديد، وأنني أطلب منهم حماية نور وحمايتي، فطمأنني وأبلغني بأننا بالفعل تحت رقابة ورعاية الشرطه وأنها مسألة أسبوع وتنتهي القضية ..

اصطحبت نور لزيارة سميرة وتركتها هناك حتى أواصل عملي وأنا مطمئنة ..

كنت في القناة أمارس عملي في ترجمة بعض التقارير، إذا بالموبايل يرن ورقم جديد، وكان المتحدث هو نفسه الذي سبق وهددني، هذه المرة قال لي وهو يضحك :

- أنصتي لي جيداً يا سيدتي المشهورة أنت، قبل أن يلتف الحبل على رقبتي أقسم بشرف أمي سوف تكونون آخر ناس أقتلها!!

أغلقت الموبايل وأسرعت إلى سيارتي، صعدت إلى السيارة وأنا أتمنى أن تختصر كل الطرق لأحتضن نور، فلن أشعر بالأمان إلا في حضنها ولأطمئن أنها بين يدي وأمام عيني، فجأة لم أجد الفرامل ووجدتني أردد الشهادة، فقد اصطدمت السيارة بأحد أعمدة الإنارة

وأنا أحاول أن أبعد بها عن الطريق، وغبت عن الوعي والدنيا وآخر كلمة كانت على لساني اسم نور "ياربي .. نور"!

"كل ما أعلمه عن الضمير

هو أنه إشارة للغائب في اللغة"

-٢٢ -

مر أسبوع وأنا لا أتناول إلا الخمر والسجائر حتى سقطت من الضعف، لأول مرة أفهم ما معنى الفراق، لأول مرة أشعر بطنين في الناحية اليسرى من صدري، نعم أنا أبكي أخي الشهيد وزوجة أبي التي شعرت بحضنها أني طفلة،أغضبوني حين حرموني منها ومن أخي..

نقلني فتحي إلى أقرب مستشفى وكانت تلك المستشفى التي كانت تعمل بها زوجة أبي..

كنت بين النوم واليقظة حين سمعت فتحي يتكلم مع أحد التمرجية، وذلك الأخير يسأله : هل هذه الوارد الجديد؟

رد فتحي : لا .. أعوذ بالله إنها زوجة مجدي.

نظرت إلى الرجل لأتحقق من ملامحه وشعرت بالنعاس، "رأيت زوجة أبي تمد يديها إليّ وهي مبتسمة وتناديني أن أقبل عليها، أتوجه إليها وأنا في قمة سعادتي وفجأة أجد أبي في يده سكيناً ينزل بها على رقبتي ليذبحني، تصرخ زوجة أبي وأحاول أن أستغيث فلا أستطيع" ..

نهضت من ذلك الكابوس على صوت فتحي..

***

"وعلى الرسول البلاغ .. مهما كانت
المصائب التي تحل به"

المعادي

فتحت عيني لأجد حولي أناس كثيرين وتمسك بي إحدى السيدات وبيدها زجاجة عطر، ووجهي كله مبلل بالماء والمعطف أيضاً .. نظرت حولي ثم نهضت من على الكرسي الذي أحضروه لي من المقهى، اعتقد الجميع أنني أتعلم القيادة، واخبرتهم بأنني شعرت بدوخة وأنني أغمى علي من الإجهاد، عدت إلى السيارة وأول ما فعلته هو الاتصال بنور لأطمئن عليها..

كان برأسي جرح بسيط وكدمة، ذهبت إلى النيابة لأعرف آخر الأخبار، دخلت مكتب وكيل النيابه الذي شكرني على المعلومات التي اختصرت الوقت ووفرت عليهم الجهد، وأنه مجرد وقت وستنتهي القضية، لكن يجب أن ألتزم الصمت وعدم الإفصاح عما لدي من معلومات، وأنهم لن يتركوا حادث السيارة إلا بعد أن يكتشفوا من الفاعل .. سألته : ماذا تقصد؟

- أنت تعرفين أن هناك من يصيد في الماء العكر، وأن أي إعلان عن تلك الجريمة سوف يجد منها البعض فرصة للطعن في الأمن والحكومة، وطبعاً ما حدث شئ عادي يحدث في كل المجتمعات، دي تجارة أطفال يا افندم، أطفال يلعبون بأمان فإذا بعصابة لا تعرف معنى

الرحمة أو أقل قدر من الإنسانية يمزقونهم إلى قطع وكأنهم شاه أو بقرة يتم ذبحها لتفرق على من يطلب أو يحتاج، وكان من الممكن أن تكون ابنتي أو ابنتك من هؤلاء الضحايا.

- من حقي كإعلامية تلقي الضوء على الخطر، أن أناقش تلك الكارثة ونبحث لها معاً عن علاج قبل أن نتحول جميعاً إلى قطع غيار تمشي على الأرض لصالح القادر على الشراء

- لن أستطيع أن أمنعك سيدتي من تأدية دورك، لكن رجاء الصبر حتى الانتهاء من القبض على تلك الشبكة.

- سأنتظر ولكن إن تأخرتم سوف أعلن أنا عن ذلك.

استأذنت للانصراف وتوجهت إلى سميرة لأطمئن عليهم جميعا وعلى نور.

-٢٢ -

فتحت سميرة الباب، فجريت لأضم نور في حضني وجلست دقائق ونحن كذلك، قبّلتها في رأسها ويديها وشكرت الله أنها بخير، وسألت سميرة عن سارة وأمجد هل هما بخير؟

قالت : نعم كل واحد في درسه الخاص.

لُمتها على استهتارها وتركها الأولاد ونحن جميعاً في خطر..

كان ردها : الموت لا هروب منه يا نجوى، نحن مؤمنون، لو جاءت الساعة سنموت في أسِرَّتنا، لا تكوني ضعيفة الإيمان..

- مثل تلك الكائنات، التي لا يجوز لنا أن نطلق عليها "إنسان"، لا تعرف الله يا سميرة، الجشع وحب المال وغياب الضمير جعلهم يتاجرون في أي شئ وكل شئ..

- الفقر يا نونا .. الفقر

- لا يا سوسو ليس الفقر فقط، من يتاجرون ليسوا الفقراء فقط .. الفقراء أحد أطراف الصفقة، هم السلعة، هم التجارة نفسها .. طرفي التجارة مجموعة مريضة

النفس بلا روح، والطرف الآخر للتجارة غني قادر على دفع ثمن البضاعة، والبضاعة للأسف إما مضطر في حالة عوز إلى المال أو برئ تم سرقة حياته منه، والحكم عليه بأن يباع أجزاء.

- لا أدري يا سوسو، أنا لا أؤمن بالتبرع بالأعضاء إنه مسمى مغلوط .. المتبرع إما أن يكون أم أوابن أو أخ، لكن أن يتم أخذ العضو من غريب فهي عمليه بيع وشراء، "تجارة"، وأعتقد أننا مع مرور الوقت وغياب الدين والضمير سيتحول أي إنسان إلى قطع غيار متحركة لصالح إنسان قادر، ولن نأمن على أولادنا ولا على أنفسنا..

تبدأ الاكتشافات والاختراعات العلمية بنية الخير للكون وللبشر ثم تنتهي إلى كارثة وحروب، لا تنسي اختراع نوبل للديناميت بدأ بنية الخير وانتهى بالحروب .. الأفيون كان للتخدير أثناء الجراحة ليتحول إلى تجارة دمرت آلاف الشباب .. التبرع بالأعضاء بدأ بنية إنقاذ أرواح لينتهي إلى تجارة بشعة يمارسها أناس لا ضمير لهم، وأنانية مفرطة وعبودية للمال بل واستعباد البشر.

- لا تنسي يا نجوى أنها أنقذت أطفال كثر وناس كثيرة.

- القادر على شراء العضو هو الغني يا سميرة، الفقراء غير قادرين على شراء عضو لأبنائهم، إن احتاجوا إلى ذلك يتركون أنفسهم وأبناءهم بين يد الله، والذي يبيع عضواً أوجزءاً من جسده ليس حراً بل في عوز واحتياج دفعه لبيع جزء من جسده .. فليعملوا وليشجعوا الهندسة الوراثية وليجنبوننا حربا ليس لنا قِبل بها ..

من قام بتلك الصفقة ومن قتل هناء يا سميرة من نطلق عليهم ملائكة الرحمة، أطباء وممرضون وناس مثلي ومثلك

- ماذا؟ هل هذا ما كشفتيه من الظرف الذي تركته لك هناء؟

- نعم لقد كانوا يقومون بخطف الأطفال وبيعهم كقطع غيار ..

(قلت الجملة وبكيت، لم أتمكن من كبح جماح دموعي، فلقد تصورت نور أو سارة أو أمجد من هؤلاء الأطفال).

حاولت سميرة تهدئتي وذهبت نور لإحضار كوب ماء، نهضت من مكاني وطلبت من سميرة الاتصال بأمجد وسارة لكي نطمئن عليهما .. دخلت مع سميرة غرفتها وجلسنا نستمع الى تسجيل بصوت هناء

"نحن نموت على مراحل حين يفارقنا الأحباب"

-٢٣ -

نهضت من الفراش وكان بجواري فتحي ممسكاً بيدي، فلقد كنا بمفردنا، فلقد غاب مجدي وأبي ولم يعد لي سوى فتحي ..

- فتحي!

- نعم حبيبتي

- أنا أعرف جيداً نوع عملنا وما هو نوع التجارة التي نتاجر، فيها وأنا شريك مهم معكم .. أليس كذلك؟

- طبعاً

- أنا اريد أن أحضر معكم كل المقابلات التي تتم أثناء إتمام عملية التبادل، أعتقد من حقي، وأنتم أكيد اختبرتموني وحتى الآن أنا ستر وغطى عليكم.

- فقط أخشى عليك فهو أمر جد خطير عليك فلتظلي بعيدة ..

- لا تخف أنا ست بمئة رجل

ضحك وردد نفس جملتي : طبعاً ست بمئة رجل .أشهد بذلك .. انتظري! مئة رجل كيف ؟! بل أنت امرأة بمئة سيدة يا عمري.

- هناك طلب ثانٍ، أنا أريد الطلاق من مجدي وأعيش لك وحدك، فأنا لم أعد أطيقه ولا أطيق وجودي معه.

- من حقك يجب أن تسألي أبوك، أنا لن أتمكن من حل تلك المشكلة، فوضعي حرج وأبوك لا يطيقني .. ثم لم الطلاق؟ فيما حاجتنا إليه ؟ علاقتنا كما هي أفضل كثيراً، إنها أحلى علاقة تلك التي تتم في السر، التي تسرق من الناس، السرقة واغتصاب حقك من أيدي الناس لها متعة بطعم مختلف، عندك أنا لا أطيق زوجتي وكم أتلهف على يوم الخميس حتى أكون معك، طعم الحرام حلو يا بنت.

- طبعا أنت تريد فلوس زوجتك وجسدي ولا تهتم بما أريده، أقول لك إني أكره مجدي وأشعر بالقرف منه، أموت كل يوم أراه فيه أمامي.

احتضنني وقبلني، فإذا بأبي يقف أمامنا ويشتم فتحي ويسب لي الدين ويتهمني باللعنة، أنا ملعونة وبنت حرام ولا أعيش إلا في البلاعات، هكذا صب كل كلماته وبصق في وجهي وانصرف مُحذرا لي بأنه لا يريد أن يراني ثانية.

هل كانت غضبته غيرة علي ونخوة أم غيرة من علاقتي بفتحي؟ لاشك أنها حقد وغيرة من فتحي وليست نخوة، فهو فقير جداً منها.

هو لا يخشى إلا أن يعرف الناس، لا يهمه إلا شكله وسمعته الكاذبة.

حزمت حقيبتي وانصرفت مع فتحي هروبا من الفضيحة التي صنعها لي أبي بالمستشفى.

هذا الرجل يأبى إلا أن يزيد رصيد بغضي له وقرفي منه، وكلما تصورت أني تخلصت منه إذا به كما القطط بسبعة أرواح، إنه يراني غير نظيفة وملعونة وكأنما هو الملاك الطاهر .. يجب أن أذيقه معنى اللعنة ومعنى العيش في المجاري، لقد رسم مشهداً لختام حياته ويستحقه ..

عرضت على مجدي فكرة التبرع بأبي فهو أكثر البضائع أمناً، فهو لا أهل له إلا أنا ولن يسأل عليه أحد وسوف نربح مبلغاً لا بأس به من بيعه، كما أنه أصبح خطراً علينا، وقلت لفتحي : لقد ساورته الظنون أنك أنت يا مجدي مَن قتل زوجته وهددني في غرفتي بالمستشفى أنه سوف ينتقم لموتها..

جلس صامتاً للحظات ثم رد قائلاً : عندك حق هذا الرجل دوره انتهى وكبر وصار خرفاً.

- اسمع .. بعدما تأخذون منه ما أنتم في حاجة إليه ارموا بقيته في البالوعة.

ضحك مجدي ضحكته التي لا تختلف كثيراً عن ضحكة عاهرة، فهو فعلا كذلك، إنها فرصتي للتخلص من مجدي وأبي ..

دعى أبي للحضور إلى بيتي للتفاهم وتصفية الخلافات بينهما، واستجاب أبي ولبى الدعوة وجاء.

قمت بتقديم المياه الغازية التي يحبها مخلوطاً بالدواء الذي كان يشتريه لي ليتجرعه الضحية التي اصطادها، وكان حاضراً معنا فتحي .. دخلت غرفتي وانتظرت أن ينصرفوا بجثة أبي ..

"طريق الخطيئة ملئ بالنوايا الطيبة"

-٢٤-

- لابد أن تكون إحدى حلقات برنامجي عن مدى جدوى التبرع بالأعضاء وإيجابياتها وسلبياتها يا سميرة .

الموضوع ليس سهلاً ولا أعتقد أن الظروف أو إدارة القناة ستدخل في نقاش موضوع شائك مثل هذا، أنت عارفة يا سوسو، العالم صار قاسياً والرحمة غابت عن قلوبنا، تحولنا إلى حيوانات في غابة؛ الغلبة فيها للقوي، لمن أمن نفسه بالثروة أو النسب أو السلطة أياً كانت شكلها..

تحول العامة والفقراء في العالم إلى مجرد مجاميع صامتة في مشهد لفيلم سينمائي، كل دورهم ملء المشهد وإكمال براعة الواقعية، ولا أعتقد أنهم سيقبلون هذا الدور الصامت بل سيجتازوا كل الأدوار المرسومة لهم ويلجأون إلى سلب حقهم إما بالسطو أو بالتمرد والعنف، وسيؤول بنا الأمر إلى سنوات طوال عجاف .. هناء واحدة من هؤلاء المهمشين، لا أتصور أنها إنسان من نفس الفصيل الذي خرجنا منه، في البداية شعرت بالغضب والاشمئزاز من مجرد سماع حكايتها، ولكن بعد وقت أدركت كم أن هذه السيدة كانت بلا اختيار، إنها كما كانت تردد، تؤدي دورها المفروض عليها، لقد

ورثت عن أبيها وأمها جيناتهما، والبيئة شكلت كل تلك الجينات الى هذا الكائن الذي لعب دور الشيطان .

أحيانا أشعر بالشفقة عليها وأحيانا أشعر بالغضب، وبأن موتها غير كافٍ للقصاص لكل من شاركت في قتلهم والأمهات الي أوجعت قلوبهن ..

- أنا لا أجد أي مبرر للقتل يا نجوى، هذه المرأة لا يجب أن تنال منا إلا كل احتقار ويجب أن يلفظها المجتمع .

- ومنذ متى كان يشعر بمثلها المجتمع ؟! منذ متى اهتم بمن هم مثلها؟ نحن من خلقنا منها ذلك الكائن المخيف؟! يجب أن نحاكم أنفسنا معها فنحن نشاركها جريمتها، تفتكري يا سميرة ما ذنب هناء في وجودها في بيئة كبيئتها؟ جهل وفقر، لا تربية دينية ولا رعاية من المجتمع، لا شك أنها بيئة خصبة لإنتاج كائن همجي عدواني كاره للمجتمع، وكما السرطان، جزء منا ينقلب علينا لينهش جسدنا فيتحول المجتمع إلى مخلوق ضعيف عاجز يحتضر، تضيع ثروته لترميم ما ارتكبته يداه من كوارث، فلا خطوة إلى الأمام .. هكذا كانت هناء، أطّرتها الظروف وحجمت اختياراتها، فلا طرق متاحة أمامها لتختار بينها، فأُجبرت أن تتجه في طريق واحد

المتاح لها، اختارت من وجهة نظرها وعقليتها ما هو مناسب لرغبتها.

- نجوى أعتقد حتى لو كنا نعيش في غابة، الإنسان بداخلي سيتحرك وسيحيل تلك الغابة الى أرض تصلح لأن تعاش .

- هذا إن كنت اخترت كوني إنسان ولم أتكيف مع باقي مخلوقات الغابة وتحولت مثلهم إلى حيوان ينهش فيه القوي جسد الضعيف

- أنا أرفض الدفاع عن تلك المخلوقة التي اختارت دور الشيطان، ولم تنتهز أية فرصة لتغتسل من ذنوبها وقد جاءت لها الكثير من الفرص، كما نقول، لقد اختارت أهواءها وجعلت غريزتها الحيوانية تقودها فصارت شيطاناً.

"ينتهي الحلم ..

لنستيقظ على فراغ الواقع من أحبتنا"

-٢٥-

جاء يوم الخميس وانتظرت مجئ فتحي، فلقد اشتقت إليه، فتحت الباب لأجد مجدي وذلك الرجل الآخر، عاد مجدي ومعه عشيقه بدون فتحي، نظرت خارج الباب وانتظرت لعله لم يصل إلى الباب بعد، نظر لي مجدي وطلب مني إغلاق الباب فمن أنتظره لن يأتي، هكذا قال وهو ينظر بعيداً حيث الرجل الذي يرافقه.

أغلقت الباب، رحبت بهما، وسألته عن فتحي، ضحك ضحكته الخليعة التي تذكرني دائماً بعهره وقال : سافر

سألته : إلى أين سافر؟

- إلى المجاري

- ماذا تعني؟

النصيب يا دودا، الرجل طمع ..

(ونظر إليّ نظرة تحمل كل معاني الشماتة والبغض لي)

- طمع في حاجة ليست من حقه، طمع في لقمة غيره، أقصد الحاجة الصاقعة التي قدمتها لأبيك، كنت بالفعل قد نويت على تقديم أبيك لكنه قدره، وقع، أخدناه وقدمناه للناس، قالوا "لابأس هو أنسب لأنه شاب أما أبوك

فلحمته عتاقي لن يكون بقيمة جسد شاب" .. عمره، قدره!!

واصل ضحكته التي كانت سواطيرا تنزل على جسدي وقلبي، يبدو أن أبي أوقع بين مجدي وفتحي وبيني، ربما وسوس إليه أننا نخطط للخلاص منه، تلميحات مجدي تقول ذلك، لم أحتمل، وضعت العباءة على جسدي وجريت إلى بيت أبي فلم أجده، ذهبت إلى الكشك وجدته جالساً في يده الشيشة ونظر إليّ نظرة فهمت مغزاها، نظرة الفائز في صراع مع ثور بعد أن غرس في رقبته سكاكينه كلها وانتظر أن يسقط .

هذا الرجل خُلق ليمزق جسدي كما يمزق ضحاياه ويبيعني مرات ومرات، لن أتيح له مزيداً من العمر ولن أدعه يهنأ بقتلي ..لا معنى لحياتي بعد موت فتحي ولا قيمة لي، أعتقد أنها نهاية مهمتي فأفقدتني طعم كل شئ أي طعم، إنها الضربة الثالثة التي أفقدتني آخر ذرة في إنسانيتي، قد اختار القدر لي أن يكون لي رحم متصحر وفي نفس الوقت شهوة كل النساء، ولفظتني الطبيعة كامرأة لها الحق أن يكون لها امتداد، يبدو أنها قررت أن أكون آخر سلالة الأبالسة البشر، فربما لو أنجبت

لامتلأت الأرض بمثلي، بالفعل طفل يحمل جيناتي وجينات فتحي كيف هو شكله؟

نسى أبي أن معي نسخة من مفاتيح بيته، ذهبت إلى شقته وكسرت قفل الكنبة وجمعت كل ما بداخها في كيس أسود كبير، ثم فتحت الثلاجة وصببت زجاجتين، مما كنا نستخدمه لتخدير ضحايانا في زجاجات الماء، فتشت في دولابه وأخرجت كل ما به من أوراق وشهادات ميلاد، ثم مسحت بصماتي من على كل ما لمسته يدي، اختبأت تحت السرير كما كنت أفعل بالمدفن وانتظرته .. عاد أبي وبين أصابعه سيجارته، دخل كما اعتاد إلى المطبخ، تجرع زجاجة الماء دفعة واحدة وعمل لنفسه كوب شاي ثم تركه بجوار السرير واتجه إلى الحمام .. تسحبت من تحت السرير وأخرجت ما تبقى معي من مخدر صببته في كوب الشاي، حتى أتيقن من تناوله للمخدر، لو كان المخدر يكفي لأغرقت كل ما في الشقة به ليستنشقه، حتى في الهواء .. عدت إلى مكاني تحت السرير، شرب نصف كوب الشاي واستلقى فوق السرير ونام.

تسحبت ودخلت المطبخ أحضرت سكيناً ودخلت عليه ذبحته .. نعم كما خروف، وفتحت أنبوبة البوتوجاز،

أشعلت سيجارة دخنتها ثم تركتها على السرير ليشتعل، وأسرعت إلى الباب وخرجت.

عدت مسرعة إلى شقتي، دخلت غرفتي وأغلقت الباب، لم أعر زوجي وعشيقه أي اهتمام، ولم ينتبها لدخولي أو خروجي، نمت كما لم أنم من قبل.

في الصباح جمعت ذهبي كله، فلقد كان مجدي كريماً معي، لقد كان يهوى أن تظهر زوجته ملغمة بالذهب ليحسدني الناس عليه .. نام مجدي من الإرهاق، خرجت من بيته وفي طريق عودتي إلى المقابر، موطني، الذي إليه دائماً المستقر والمقام .. كان لابد لي من خطوة أخيرة.

-٢٦-

اتصلت من أحد الأكشاك بزوجة فتحي، وأخبرتها بأن من قتل زوجها هو مجدي، وقد باعه أجزاء ولن تجد جثته وأن مجدي في شقته ينعم بالمبلغ الذي حصل عليه نظير صفقته .. سمعت صرختها، أغلقت الموبايل وسرت لأكمل طريقي .

زوجة فتحي كانت من أسرة يعمل جميع أفرادها بتجارة الرخام ولهم رجالهم، دخلوا على مجدي وقاموا بذبحه هو وعشيقه، ثم أحرقوا جثتيهما أمام الجميع وهرب الجناة .. الظاهر أمام الشهود أنهم قتلوا اثنين من الشواذ وتجار المخدرات، لا تهمني باقي الأحداث، إن تم القبض على الجناة أم لا.

***

عشت في المدفن عدة أيام وكنت أتحرك فقط للبحث عن مسكن، كنت أشعر بغربة في الحوش، يبدو أن الموتى يرفضونني، ربما لأنني أزعج سلامهم أو ربما أنا من يحاول أن يجد فسحة من الوقت قبل الانضمام إليهم .. تُرى كيف ستكون خاتمتي؟!

أستأجرت شقة بإحدى العمارات الراقية بالمعادي، التي يقف على أبوابها رجال أمن؛ حتى أشعر بالأمان وأتمكن من النوم، وتعمدت ألا أختلط بأي أحد حتى لا يصل إلي أحد من أهل فتحي أو مَن تاجرت معهم، فلقد علمت من بعض رجالنا أن هناك من يبحث عني للتخلص مني، فأنا آخر أفراد شبكة المعادي وإن نجحوا في قتلي فلقد نجحوا في طمس كل ما يدينهم..

معي فلاشة وجدت عليها أسماء الكثير من الأطباء، وأماكن إجراء تلك العمليات، وعناوين فتحي وأنا وأبي وكل من كان يعمل معنا .. اكتشفت أن مجدي لم يكن غبياً رغم سفالته

اسمي في شهادة ميلادي وبطاقة هويتي هو "روح"، لكن لم يكملوا بياناتي كما كان يجب "روح إبليس"، هكذا كان يجب أن يكون اسمي، أما ناهد فهو الاسم الذي اخترته لنفسي بديلا عن اسم روح، منحتني إياه مرآتي حين ضاهيت صورتي وممثلة الإغراء ناهد الشريف .. لي نصف اسمها، ناهد، أما الشريف ليس أبي .. أما هناء فهو الاسم الذي تمنيت أن أحظى ولو بقدر يسير من معناه، ليس نحن من نختار أسماءنا.. أدركت الآن أن القدر هو من يملي الاسم على آبائنا

فيكون الاسم حاملاً حظنا وسمات شخصيتنا، بل وما كتب علينا، وأنا كنت حمقاء إذ تصورت أني سأغير حظي وقدري حين أغير اسمي.

سمعت ذات مرة الشيخ على الشاشة يقول: "إن من قتل يقتل ولو بعد حين".

أنتظر نهايتي، والتي لا أخافها، فأنا مارست الموت ومارسني طوال حياتي، وكان رفيقي منذ مولدي، وكان ظلا لي، فكلما حاولت الهروب منه أجده ملازماً لحضوري ..

لكل منا دور في هذه الحياة، وأنا قمت بدوري وأجَدته، لم أحاول أن أجمل صورتي يوماً، تعايشت مع جسدي ولم أُعادِ رغباته وتكيفت مع بيئتي، وكنت مثلها مدفناً ومقبرة .. لن تنكروا الموت ولن تنزعوا عنه الحق في الوجود ..

وأنا أنتظر قابض روحي، ربما تغيب صورة أمي وفتحي وزوجة أبي وباقي ضحاياي من أحلامي، ربما أجد السلام وأنعم بالنوم.

***

يد القدر

ذهب ناصر كما تعود كل جمعة لزيارة منار وفي يده علبة من القطيفة بها قلادة وأسورتان .

لم تصدق منار وتفتحت مسامات وجهها فرحاً، وامتدت شفتيها على الجانبين لا تطيقان أن تلتقيا انبهاراً بالذهب الذي تجن به، قبلته على خده من شدة فرحتها، لكنها لاحظت شروده، ولكن رفضت أن تعكر صفو سعادتها وكأنها أرادت أن توصل إليه رسالة، أنت هنا لتحقق لي طلباتي، فما أنت إلا مصباح علاء الدين، أدعكه ليسقط الصدأ عنه ويخرج منه العفريت ليلبي لي طلباتي، لا يهمني من أين حصلت على هذا الذهب ..

فجأة يدرك ناصر كونه آلة بيدها وأن تلك الآلة ستسقط يوماً تحت قدميها أو ستلقي بها بعيداً بعد أن تحقق لها أمنياتها.

ترك لها العلبة بما بداخلها من ذهب وخرج متوجهاً إلى مكان ما!!

"ما زال الأمل في قعر آنية باندورا"

-٢٧-

تم القبض على أحد رجلي الأمن الذي قام بالجريمة، فهي لم تقتل على يد تجار الأعضاء، بل ذبحها رجل الأمن لأنه كان في حاجة الى أموال للزواج، وعلم أنها وحيدة وربما أدرك أنها تختبئ خوفاً من شئ ما وتصور أن قتلها سيتهم به أحد هؤلاء الذين تختبئ منهم..

كان يتابعها، حيث كانت قليلة الخروج لا يأتي لها زوار، وفهم أنها لا أهل لها وقد أغراه كم المصوغات التي تلمع في معصميها ورقبتها، وهو الشاب الفقير الذي يعمل طوال الليل والنهار ولم يستطع أن يوفر ثمن أقساط شقة ليتزوج بفتاة أحلامه، والتي هددته بفسخ الخطوبة إن لم يتمكن من سداد دين أمها وباقي أقساط الشقة.

بخ الشيطان سمومه في أذنه وبدأ في مراقبتها والتخطيط لسرقتها، فهو كما ادعى لم يكن في خطته قتلها ..

كانت في يوم الأحد، حيث كل سكان العمارة في أشغالهم وكانت قد طلبت من عامل الدليفري وجبة سمك، أخذ من عامل التوصيل الوجبة ودفع له قيمة الوجبة وصعد هو إليها .. رن جرس الباب، ترددت في فتحه لدقائق ثم سألته : ماذا تريد؟

أجابها أنه أحضر لها الوجبة التي طلبتها ودفع ثمنها، فتحت الباب وأخذت منه الوجبة وطلبت منه الانتظار حتى تحضر له النقود.

غافلها وضربها على رأسها بيد المسدس الذي يحمله، سقطت على الأرض ولكنها لم تفقد الوعي بالكامل، حاول أن ينزع عنها الأساور، حاولت أن تقاومه، خنقها ومن رعبه أن تفيق مرة أخرى دخل المطبخ وأحضر سكيناً ليكسر الأساور، لاحظ أنها ما زالت تتنفس مما دفعه لذبحها .. منظر الدم أخافه فلم يستطع إكمال سرقتها، اكتفى بأن جمع الأساور والسلاسل التي كانت ترتديها، ومسح بصماته عن السكين والدم عن حذائه، وهبط إلى مكانه وجلس وراء الريسبشن ..

هكذا كانت شهادته ..

ثم توالت سلسلة التحقيقات التي انتهت بالقبض على شبكة كبيرة من تجار الرقيق أو كما يقول شبكة بيع الأعضاء والتي كانت تضم أسماء كثيرة من الأطباء الذين باعوا ضمائرهم مقابل حفنة من العملات بكل الألوان، وعدد من الممرضات وسماسرة الأعضاء وبلطجية.

****

العمارة لم تعد مكاناً مريحاً للسكنى .. لا أتصور أن أكمل حياتي في مكان تطاردني فيه هناء ويدها الملوثة بقتل كل هؤلاء الأطفال، لابد أن أجد ملاذاً يأخذني ونور في حضنه ..

نجحت حلقتي عن عصابة تجار الرقيق وأسميتها بذلك، فهي نفس التجارة ولكنها لاشك أبشع، فتجارة الرقيق كانت تحافظ ظاهرياً على البشر أحياء، أما هؤلاء فتاجروا بنا قطعاً .. تعمدت أن أنأى باسمي بعيداً حتى لا أضر من حولي واكتفيت بمساهمتي بالقبض عليهم في سرية.

***

في ليلة السبت بعد أن عدت من عملي بالقناة، كنت اتصفح الفيس بوك وجدت رسالة من عنان قال فيها إنه وجد لي فرصة عمل جيدة جداً كمترجمة وصحفية بأحد وكالات الأنباء الشهيرة، وأنها فرصة لا يجب أن أضيعها.

اتصلت به بحجة الرغبة في الاستفسار عن العقد، والحقيقة أنني كنت أشتاق إلى سماع صوته.

رد، ووجدت في صوته نفس اللهفة، تحدثنا طويلاً، أخبرني أنه قد سمّى ابنته على اسمي، حتى لا ينساني

وأن الحياة لم تستقم مع زوجته، والتي فضلت الانفصال وأن يظلا أصدقاء ..

حاول إقناعي بالسفر والاستقرار بالنمسا، وبالفعل كنت على وشك الاستسلام والقبول بعرضه، لكني أدركت أنني لم أعد حرة، فهناك نور التي يجب أن تربى هنا في مجتمعنا الشرقي وتعيش بين أصدقائها، ولا يحق لي أن أنزعها من جذورها لتحيا بأرض ليست بأرضها، يجب أن تتأقلم مع ظروفنا، أما عني فأنا ناجحة ببلدي وحين يأخذني الحنين إلى أمي وأختي سأسافر لزيارتهم ومعي نور، أما عن عنان، فسيظل قصة الحب التقية في حياتي والتي أعتقد أن عمرها سيطول، فهكذا هي قصص الحب التي لم يتذوق طرفاها لذة الجسد، تظل خالدة، سأجده بداخلي حبيباً، وفي حياتي صديقا، وعهدي مع الله "أن هذه قسمتي فيما أملك فلا تحاسبني فيما لا أملك" .. قلوبنا بين يدك يا الله .. نلتقي كما رفقة حياة ورحلة، ولا يجب أن تتعدى ذلك.

هكذا كانت المكالمة الحاسمة لما كان يعتمل بداخلي وقد أبلغته بذلك.

أغلقت الهاتف وقد شعرت براحة وسلام، وانتقلت مع نور للسكن بمنطقة هادئة على أطراف القاهرة، مجمع

سكني جديد، ذهبت لأرى سميرة قبل الانتقال إلى سكني الجديد، والتي فاجأتني بأنها حجزت شقة بنفس الكومباوند،"المجمع السكني"، وأنها ستنتقل معنا بعد عدة أشهر، سعدت بالخبر جداً .

سكني الجديد بمنطقة بعيدة عن القاهرة وصخبها، إنه مجمع جديد ما زال خالياً من البشر، لم تُصغ حكايات داخله بعد، أتمنى أن يكون الملاذ والمرفأ بعد رحلة، بل رحلات من الأوجاع والآلام.

خرجت نور لتنظر من البلكونة فإذا بها تصيح في :

- يا نونا حرام عليك تعبت، لقد قبلت أن تعزليني عن الجنس الآخر وصار عالمي كله من النساء، ينتهي بنا الحال إلى البعد عن كل مخلوقات ربنا ؟!

تمام، عن طيب خاطر أقبل تلك العزلة لكن امنحيني كلبا يسليني في هذا الفراغ ويكسر نباحه هذا الصمت ..

- سمعاً وطاعة ابنتي الجميلة، لك ذلك.

ضحكت من قلبي ولأول مرة أضحك، وكان على مرمى بصري من يراقب.

***